كتاب الهلال

الحرية الحمراء

جهاد - بطولة - تضحية

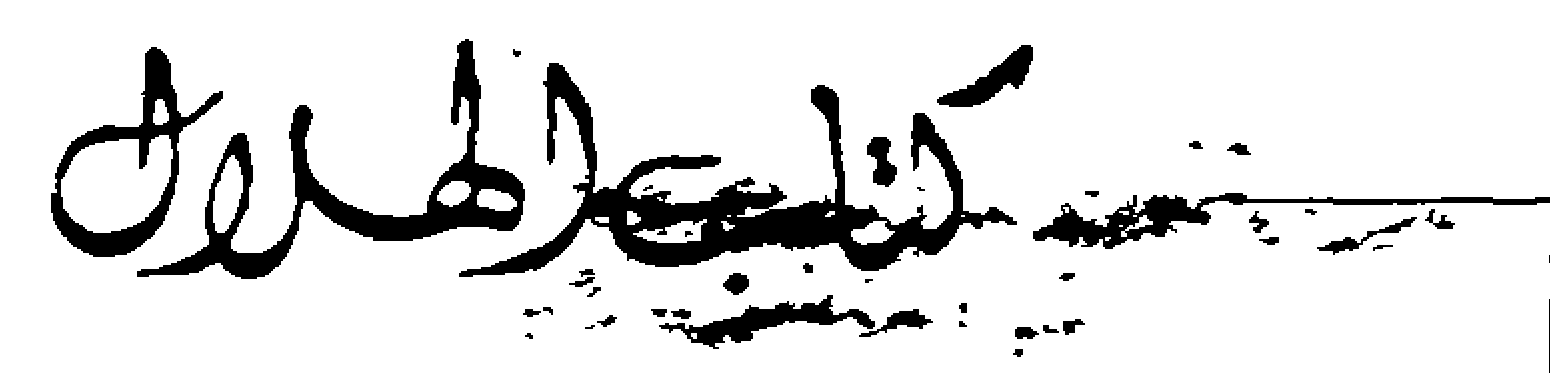
تأليف

حبيب جاماتي



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال





KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٤٠ ـ ذو القعدة ١٣٧٣ ـ يوليو ١٩٥٤

No. 40 — July 1954

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

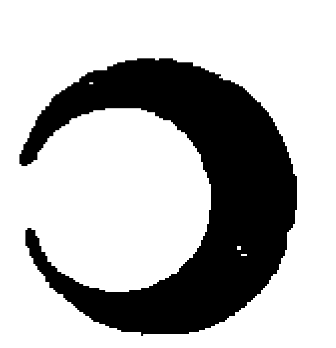
المكاتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

الحرية الحمراء

تأليف

جميل جاماتي

اهـــداء

هذه اقاصيص مستوحاة من وثبات الشعوب والأفراد ، فى جهادهم القومى ، وصراعهـم الوطنى ، من أجل الحرية والاستقلال والسيادة : حرية المواطن ، واستقلال الوطن ، وسيادة الأمة

ولهذا ، فاننى اهديها الى كل مظلوم ضيق الظالم عليـه الخناق ، أو حط الاستعمار عليه بأثقاله ، فعمد الى الثورة ليعتق نفسه ، وحطم القيود ، وافلت من الأسر ، وبذل فى سبيل الحرية العزيزة المهج الغالية والدماء الحمراء !

القاهرة

حبيب جاماتى

مقدمة

قالوا : ضع « مقدمة » لهذا الكتاب

فقلت : وهل الحرية فى حاجة الى من يقدمها ؟

ان خير ما يكتب فى صدر هذه المجموعة من الأقاصيص الوطنية ، ما تغنى به السلف الصالح ، وسعى الخلف الأمين لتحقيقه

دعا المتنبى الى الجهاد فقال :

عش عزيزا ، أو مت وأنت كريم
بين طعن القنـــــا وخفق البنود

واطلب العـــز فى لظى ، وذر الذل
ولو كان فى جنـــــان الخلود

وأفرغ ابن الرومى حب الوطن فى هذا البيت :

ولى وطن آليت أن لا أبيعـــه
وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا

ووصف عبد المحسن الكاظمى الاحرار الثائرين فقال :

وقفوا يهتفون للموت شوقا فى ظلال الصــفاح والمران
ومشوا مشية الأسود ظماء لورود المنــون دون الأمانى

لا تقــولوا نيل المرام محال ان نيل المــرام فى الامكان !

واهاب ابراهيم اليازجى بالعرب صائحا :

تنبهوا واستفيقوا أيهــا العــرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخــدعكم
وانتم بين راحات الفنــا سلب
لا تبتغوا بالمنى فوزا لأنفســكم
لا يصدق الفوز ما لم يصدق الطلب

وصاح بعده الامير شكيب أرسلان قائلا :

فدى لحمانا كل من يمنع الحمى
ومن ليس يرضى حوضه متهدما
فمــا العيش الا ان نموت أعزة
وما الموت الا ان نعيش ونسلما
تجــاهل اهل الغرب كل قضية
اذا لم يجىء فيها الحسام مترجما !

واخــيرا ، ان انشودة شوقى فى الحرية لا تزال ترن فى الآذان :

وللأوطان فى دم كل حــر يد سلفت ودين مســتحق
ولا يبنى الممالك كالضــحايا ولا يدنى الحقوق ولا يحـق
ففى القتلى لأجيال حيــاة وفى الأسرى فدى لهم وعتق
وللحــرية الحمــراء باب بكل يد مضــرجة يدق

رحم الله السلف الذى بدأ الجهاد ، واخذ بيد الخلف الذى يواصله !

ح ٠ ج

يحيا الوطن

فى خلال الثورة المصرية على الانجليز، سنة ١٩١٩ ، لم يكن الصغار دون الكبار وفاء للوطن ، ولا اقل منهم سـخاء فى ميدان التضحية

وهذه قصة بطل من اولئك الابطال الصغار

انهم عشرات .. انهم مئات .. انهم آلاف .. أولئك الابطال المجهولون الذين حصدتهم الرشاشات كالسنابل ، ومزقت الرماح والسيوف صدورهم ، وغاصت حوافر الخيل فى فيض من دمائهم ، بين قهقهة الطغاة الظالمين ، وهتاف العزل المظلومين : اولئك يشتمون ويجدفون ، وهؤلاء يرددون انشودتهم العذبة : « يحيا الوطن ! »

لقد تطايرت فى الشوارع والميادين اشلاؤهم ، وغصت المقابر والحفر بجثثهم ، ودفن الكثيرون منهم دون ان يعرف أحد اسماءهم ، او ينبىء أهلهم بمصيرهم !

كان بينهم الصانع والعامل ، والخادم والعاطل ، والفلاح والمزارع ، والمتسول والبائع : فقد ادى كل مصرى فى تلك الايام الرهيبة قسطه من الواجب ، وتحمل كل مصرى نصيبه من الجهاد ، وسكب كل مصرى نقطة من دمه الفائر على مذبح الوطن ، ولسان حالهم جميعا يقول : « نموت وتحيا مصر ! »

هذا ما حدث فى سنة ١٩١٩ وفى السنوات التالية ... وهذا ما سوف يحدث فى الغد كما حدث بالامس ، كلما جد الجد ، وتلبدت فى سماء مصر الغيوم ، واحدقت بالوادى المبارك المخاطر ، وداهمت شماله او جنوبه الخطوب !

☐

تناولت « أم سالم » الجنيهات الذهبية الثلاثة التى دفعتها اليها ، وحدقت فيها البصر مذهولة حائرة ، وتمتمت كلمة شكر لم أفهمها ، ثم رفعت عينيها فاذا بالدموع تغشاهما ..

وبعد برهة صمت قصير .. ادركت خلاله أن عواطف متباينة تتلاطم فى صدر بائعة الفول ، قالت « أم سالم » بلهجة جعلتها العبرات خافتة متهدجة ، أن هذه «الفلوس» تنغص عيشها ، وانها تؤثر عليها الفقر والفاقـة ، بشرط أن يعود زوجها من غربته

اسم الزوج « محمود عبد الشافى » وقد ساقته السلطة البريطانية العسكرية مع من ساقتهم من ابناء الريف المصرى، فى خلال الحرب العالمية الاولى ، فالتحق بفرقة العمال التى أمنت وسائل النقل للجيش البريطانى ، وشقت له الطرقات وعبدتها ، ومدت له الخطوط الحديدية ، واهرقت من اجله عرق الجبين ممزوجا بالدماء !

عرفت الرجل سنة ١٩١٧ ، فى جبال العقبـة ووادى الاردن ، حيث كان هو وفريق من رفاقه يقومون بأعمالهم الشاقة ، وشكا المسكين بين يدى لان مرضا قاتلا كان يسرى فى جسمه وينخره شيئا فشيئا ، ولا سبيل الى عـلاج ولا أمل فى شفاء

جئت الى مصر فى صيف سنة ١٩١٨ ، فى اجازة قصيرة مع لفيف من رجال الثورة العربية ، فكلفنى صديقى «محمود عبد الشافى » بأن أبحث عن زوجته « أم سالم » ، وأسلمها ثلاثة جنيهات ذهبية اقتصدها الرجل من اجره اليومى ، وانبئها بأنه يسعى للعودة الى مصر

وكانت الزوجة تقيم فى بيت صغير فى «الشرابية» وتطوف شوارع غمرة والفجالة حاملة على رأسها وعاء كبيرا ، تنادى على بضاعتها بصوت رخيم يطرب له الناس ويقبلون على الشراء : « أبيض يا نابت ! »

بكت اذن « أم سالم » ، ووعدتها بأن أساعد زوجها فى محاولته الحصول على اذن بالعودة الى وطنه ، وان اطمئنه عليها وعلى ابنها سالم

لم اجد صديقى « محمود عبد الشافى » بين العمـال المصريين عندما عدت الى الجبهة ، فسألت وبحثت حتى عرفت الحقيقة ، وما ابشعها !

قيل لى انه مات مقتولا ، وان الذى قتله ضابط انجليزى افرغ فى راسه رصاصة من مسدسه ، لامتناع العامل عن مواصلة السير مع قافلة اخوانه ، بسبب مرضه وضعفه ، والضابط الذى قتله كان معروفا بين العمال بقسوته وشراسته ، وكانوا يطلقون عليه اسم « ابو حنة » لاعتقادهم انه يصبغ شعره الاحمر بالحناء

وكان رؤساؤه انفسهم من الانجليز يؤنبونه على شراسته ويدعونه الى معاملة مرؤوسيه بالحسنى ، ولكنه لا يصغى ولا يحسن ولا يعدل !

ولم يكن « محمود عبد الشافى » اول عامل قتله ذلك الجلف فى مضايق العقبة ووادى عربة وسهول الاردن ، فضلا عن المئات الذين فتكت بهم الامراض ، وقضى عليهم التعب والارهاق فى تلك الفيافى والقفار ، فالقيت جثثهم فى حفر الى جانب الطريق الذى كانت « فرقة العمال » تشقه للجيش الزاحف ، ان لم تكن قد ظلت فى العراء طعمـة للنسور والضباع

وفى اواخر سنة ١٩١٨ ، قفلت راجعا الى مصر حيث استقر بى المقام ، فالفيت « أم سالم » على حالها : تطوف الاحياء وتنادى على فولها النابت ، والصبى يساعدها

ترددت فى اطلاعها على الحقيقة . ولكننى رايت الا مناص من ذلك . فبكت المسكينة مرة اخرى ورفعت يديها الى السماء طالبة من الله الرحمن الرحيم ان يلهمها الصبـر والسلوان ، وأن يمنح الفقيد فى العالم الآخر ما حرم من سعادة فى هذه الدنيا ، وينزل العقاب بالقوم الظالمين الذين سببوا شقاءه وموته !

وكان لام سالم اخ يدعى « احمد موافى »ماتت زوجتهولم يرزق منها ابناء ، فأقام مع اخته واحتضن وحيدها

وما وضعت الحرب أوزارها ، حتى هبت على مصررياح الثورة العاتية فزعزعت مركز الغاصبين ، ودفعت بأبناء مصر الى ميدان الجهاد افرادا وجماعات . .

أوغر المستعمرون صدور المصريين بالظلم والارهاق ، فانفجرت فيها مراجل الحقد والغيظ ففاضت حماسة رائعة وشجاعة فائقة . ورفع سعد زغلول صوته مناديا بحقمصر فى الحرية والاستقلال والسيادة ، فارتفعت معه اصوات الملايين . ومشى فمشت مصر فى اثره ، وملأ اجواء المدن والقرى والمزارع هدير الشعب الغاصب الثائر : « يحيا الوطن ! »

ونزل « احمد موافى » الى الشارع مع من نزل اليه من رجال الحى وشبانه ، وانطلق بعضهم الى الاقاليم يشدون ازر الثائرين فيها ، أو يدعونهم الى نجدة اخوانهم فى قلب العاصمة الهائجة !

وعمد الانجليز الى الحديد والنار ، ليخنقوا الثورة فى مهدها ، ويلقوا الرعب فى النفوس على أمل أن يخلد الناس الى السكينة . وهذا شأن الظالم مع المظلوم ، وغاصبالحق مع صاحب الحق المغصوب فى كل آن ومكان . . .

وفى ٨ مايو سنة ١٩١٩ ، اعتقلت السلطةالبريطانيةسعد زغلول واربعة من صحابه ، وارسلتهم الى المنفى بجزيرة مالطة ، ظنا منها ان الشعب سيرتعش ويرتجف ويهدأ ، عندما يرى أن يد الاستعمار القوية قدبطشتبالقائدوطوحت بالرؤوس . . .

لكن النتيجة كانت غير ما حسب المستعمرون فان بطش اليد القوية زاد الشعب ايمانا بقضيته ، وامعانا فى المطالبة بحقه . . .

وتعددت المظاهرات ، وتوالت المصادمات بين المتظاهرين والجند البريطانى الشاكى السلاح ، وفى احدى تلك المظاهرات ، فى شهر يونية سنة ١٩١٩ ، سقط احمد موافى صريعـــا برصاصة مسدس ، أطلقها عليه ضابط انجليزى فى محطه القاهرة ...

وبقيت ام سالم وحيدة بلا عائل ولا معين ، فضمت ابنها الى صدرها مترحمة على الفقيدين اللذين قتلهما الانجليز : الزوج فى جبال الاردن ، والاخ فى مدينة القاهرة ..

وبكى معها اليتيم سالم ، ولكنه شعر فجأة بأنه لم يعد طفلا بل اصبح رجلا قبل الاوان ، فطبع قبلة على جبين امه ، ورفع يده الى السماء واقسم قائلا انه سيضمن لها الرزق وينتقم لابيه وخاله ...

كان شهر ابريل سنة ١٩٢١ مطبوعا بطابع الخلود فى تاريخ مصر . ففى ذلك الشهر الميمون عاد سعد الى الوطن بعد ان فك اسره واقام مع رفاقه مدة من الزمن فى عاصمـــة الانجليز يفاوضونهم فى قضية مصر . ولكن الانجليز ظلوا متعنتين مكابرين ، ورجع الاسد المصرى الى العرين داعيا أشباله الى مواصلة الكفاح

وقد استقبلت مصر زعيمها بمظاهر الفرح ، وهرع سكان القرى والضواحى الى القاهرة ليشاركوا سكانها الهتـــاف والدعاء ، وكانت ام سالم مع اخواتها تصفق وتغنى : « يامحنى ديل العصفورة ، باشواتنا جايه منصورة ! » وكان ســالم الصغير مع فتيان الحى يرقص ويهزج ويصغى الى الخطباء ، ويحاول ان يتفهم معنى الكلمات التى كانوا يتغنون بهــــا « الوطن ــ الاستقلال ــ الحقوق ــ نموت وتحيا مصر ! »

مضى الانجليز فى طغيانهم ومضى المصريون فى جهادهم

وفى يوم من ايام مايو سنة ١٩٢١ ، بينما المظاهرات تعم مدن القطر وقراه ، صدرت الاوامر الى الجيش البريطانى

بالنزول الى شوارع العاصمة واحتلالها

وخرج سالم بن محمود مع رفاقه فى مظاهرة بريئة فى « شارع عباس » . وشاءت المصادفات ان تمر فى تلك اللحظة كوكبة من الفرسان الانجليز فى طريقهم الى قلب المدينة ، فأغار هؤلاء الابطال على الفتيان الصغار بخيولهم وسيوفهم ، وتفرقت المظاهرة فى الحوارى والازقة ، غير ان بعض الفتيان كانوا ابعد من رفاقهم جرأة ، فظلوا متربصين وراء الجدران يقذفون الجند بالحجارة . وتسلق سالم شجرة على رصيف الشارع ، واختار ضابطا من ضباط الكوكبة ، وقذفه بحجر وهو يصيح : « ابويا فين ياجونى ؟ خالى فين يا جونى ! » واصاب الحجر الضابط ، وثار ثائر رفاقه فالتفتوا الى مصدر الصوت ، وما هى غير دقائق حتى كان الصبى الجرىء قد هوى من شجرته كالعصفور ، وقد مزقت السيوف جسمه

حدث هذا على مقربة من منزلى ، وقد اسرعت الى مكان الحادثة مع لفيف من سكان الحى ، ورأيت الصبى يحمله رفاقه ويبتعدون به ، ورأيت الفرسان الانجليز يحيطون بضابطهم ، ثم ينقلونه فى سيارة عائدين الى الثكنات . . .

وكانت نظرة واحدة الى الضابط كافية لكى أعرفه ، فقلت لرفاقى : « لقد مات سالم ولكنه انتقم لابيه من قاتله ! »

نعم ، لم يكن ذلك الضابط القتيل غير ذلك العاتى الذى قتل محمود عبد الشافى ! فقد شاءت الاقدار ان ينقل أبو حنة من ميدان القتال الى مصر حيث قاد الفرسان ضد الثائرين المصريين ، فقتله ابن ضحيته ، سالم محمود !

□

فى سنة ١٩٢٣ ، كانت ام سالم لا تزال على حالها ، تطوف الاحياء وتنادى على فولها النابت . . .

ولكن الحزن هد بنيانها ، واحنى ظهرها ، واخفت صوتها واطفأ بريق عينيها

ولم أعد اذكر بأية مناسبة رويت قصتها لمرقص باشا حنا ، عضو الوفد المصرى رحمه الله ، فأخذني بيدي وذهبت معه الى بيت الامة حيث طلب مني أن أعيد القصة على مسامع سعد ، ففعلت . وكان الزعيم الكبير يدون حوادث البطولة الرائعة التى امتازت بها تلك الثورة الوطنية المجيدة، فطلب أن نجيئه بالمرأة أم البطل سالم ، وأبى الا أن يهنئها بشجاعة ابنها ، ويعزيها على فقده ، ويقرر لها معاشا ظلت المرأة تتقاضاه من اسرة سعد حتى موتها ، فى شهر مارس سنة ١٩٢٧ ، اى خمسة شهور قبل وفاة الزعيم الخالد . .

□

هذه قصة اسرة مصرية من صميم الشعب . وما أكثر مثيلاتها بين الاسر المصرية ، التى جاد افرادها بالمهج والارواح فماتوا لكى يحيا الوطن !

ابن البواب

« فى بطولة الصغار روعة لا تعادلها
روعة البطولة عند الكبار ! »

فولتير

هذه وريقات انتزعت من مذكرات ـ قليلة ويا للاسف ـ دونتها حسب الظروف والاحوال ، فى اثناء الثورة الرائعة التى اندلعت ألسنة نيرانها فى مصر ، فى سنة ١٩١٩ ، وما عتمت ان امتدت فى جميع انحاء القطر

فلا يبحثن القارىء فيها عن شىء آخر غير مايدون عادة فى مثل هذه المذكرات فقد أبيت الا ان أقدمها له كما دونتها فى حينها دون ان ادخل عليها تعديلا

أردت أن اتحدث هنا عن « بطل » فلم ابحث عنه فى سجلات التاريخ ، ولم استرشد فى بحثى بالحوادث الخطيرة التى وقعت فى العصور الخوالى . فان أعمال البطولة الحقة كثيرة فى تاريخ مصر الحديث ـ بل فى تاريخها الحاضر الذى لم تطو صفحاته بعد ولم يجف المداد الذى كتبت به . وكيف يجف ذلك المداد وهو دم احمر سال ولايزال يسيل على جنبات مصر ، ويروى شجرة الحرية التى نبتت أغصانها واورقت ؟

□

٨ مارس ١٩١٩ ـ اليوم اعتقل سعد زغلول باشا، ومحمد محمود باشا ، ومحمد الباسل باشا، واسماعيل صدقي باشا، وارسلوا الى بور سعيد ولا يعلم احد الى اين ترسلهم السلطات الانجليزية من هناك . وقد اجتمع الوفد المصرى برياسة وكيله شعراوى باشا ورفع احتجاجه على اعتقال الزعماء. ويقال انه ارسل خطابا بهذا المعنى الى صاحب العرش

٩ مارس ١٩١٩ ـ قامت اليوم فى القاهرة مظاهرات

هائلة ابتدأ بها الطلبة . ثم سارت الجموع فى الشـــوارع تهتف بحياة مصر وحياة الزعماء المعتقلين

١١ مارس ١٩١٩ ـ كنت فى شبرا واردت ان اعود الى منزلى بشارع حمدى بالظاهر . ولكن الحوادث التى وقعت فى الشوارع حالت دون وصولى فاضطررت الى المبيت عند أحد الاصدقاء

وقد رأيت للمرة الاولى مصادمات بين المتظاهرين العزل من السلاح ، والجنود الانجليز المدججين به . فقد تصدى هؤلاء الجنود بدباباتهم ورشاشاتهم وبنادقهم وخوذاتهم وسيوفهم ، لجموع السائرين فى مظاهرة رائعة، عند كوبرى شبرا ، ولا سلاح فى ايديهم غير الرايات المصرية المختلفـــة الاحجام ، وغير حناجرهم يرسلون منها هتافا داويا ، يقابل رصاص الانجليز الداوى !

وقد سقط اثنان من الطلبة ، كانا يحملان علمين فتلقاهما رفاقهما بين ايديهم ، ونقلوهما الى مكان امين ، وتناول اثنان آخران العلمين ، واندفعا الى الامام والجماهير وراءهمـــا صائحة : « فلتحى مصر ! ليحى سعد ! »

□

التقيت عند كوبرى شبرا بابن بواب المنزل الذى اسكن فيه بشارع حمدى واسم الصبى « مرسى »

هو فى نحو العاشرة من عمره ، امى مثل ابيه ولكنه ذكى جدا . وهو كتلة اعصاب ، وحركة دائمــة ، لا يجلس فى مكان ولا يهدأ لسانه فى فمه

وكان مرسى قد اندفع مع رفاقه ـ وما اكثرهم ـ للاشتراك فى المظاهرات . فالف ما يسميه « عسكر حمدى » نسبة الى الشارع الذى يقطن فيه مع ابيه ، وكان رفاقه يخضعون له وينفذون اوامره . ويخيل الى ان « مرسى » ولد لكى

يكون زعيمــا لا لكى يخلف أباه فى حراســة الابواب بشارع حمدى !

دار بينى وبينه هذا الحديث :

ـ بتعمل ايه هنا يا مرسى ؟

ـ والله يا بيه مشينا فى المظاهرة ويا الجماعة

« الجماعة » يعنى « عسكر حمدى » او جنود مرسى !

واقترب منى سائلا :

ـ حضرتك رايح البيت يا بيه ؟

ـ ايوه يا مرسى

ـ آجى وياك !

ـ اهلا وسهلا !

ومشينا معا فى المظاهرة ، على ان نفترق عن الاخـوان ونذهب فى سبيلنا عائدين الى شارع حمدى بعد انتهـاء المظاهرة

□

لكننى لم اتمكن من السير مع مرسى الى النهاية . فقـد فصلتنا الجموع الزاخرة ، وعبثا حاولت العثور عليه عندما عزمت على العودة الى البيت

وفى الساعة السادسة مساء كنت فى طريقى الى شـارع حمدى واذا بى فى شارع الفجالة ، التقى بمرسى ومعه احد رفاقه او بالحرى احد جنوده من « عساكر حمدى »

وقبل ان اناديه ، وقبل ان يرانى ، وقع حادث فظيع يستحق ان يدون فى تاريخ مصر ، عندما تعود الميـاه الى مجاريها فى هذا القطر السعيد ، ويعمد المؤرخون الى تدوين الحوادث الرائعة التى كانت هذه البلاد ميدانا لها

وقع نظر مرسى ورفيقه على ثلاثة من الجنود البريطانيين

ـ او الاستراليين لا ادرى ـ وكانوا يمشون على رصيف الشارع وقد خلا الا من بعض المـارة ونحن منهم ، وجعل هؤلاء الجنود يقهقهون ويغنون بلغةبلادهم ، ويتمايلون يمينا ويسارا كما يتمايل السكارى

وكانوا فى الواقع سكارى

ولكن هل اسكرتهم اقداح الويسكى أم اسكرتهم الدماء التى أهرقوها فى ذلك اليوم ظلما وعدوانا ؟

هذا ما يعرفونه دون سوهم !

رآهم مرسى ورفيقه ، فلحقا بهم ، ومشيا وراءهم ، وخيل الى والى الصديق الذى كان معى ، ان مرسى يرسم مع رفيقه خطة جنونية ، وانه يريد الاعتداء على الجنـود الثلاثة المسلحين !

ولم يخطىء ظنى . . .

ولكن اعتداء مرسى ورفيقه كان من نوع غريب . فقـد رأى الصبيان ان فى يد احد الجنود علما مصريا يمزقـه ويمسح به رأسه . .

ثم تتابعت الحوادث بسرعة مدهشة . .

مسح الجندى حذاءه بالعلم . . .

فوثب عليه رفيق مرسى من الوراء ، ومر بجانبه كالسهم المارق ، وخطف العلم من يده ، وانطلق يعدو فى الشـارع صائحا :

ـ بقى تمسح به جزمتك يا ابن . . .

فاطلق احد الجنود الثلاثة عليه رصاصة اصابته فى فخذه فخر يتخبط بدمه

واسرع مرسى . . .

وقبل ان يصل الجنود الى رفيقه الجريح وصـل الى ناحيته ، واخذ العلم من يده وقد تخضـب بالدم ، وفر

هاربا متواريا فى الأزقة والحوارى ، صائحا فى وجوه الجنود :
ـ والله ما أنت واخده يا جونى !
وانطلق الجنود وراءه ...
واطلقوا النار مرتين ...

▭

اسرعت مع صديقى الى الصبى الجريح فاذا بالجرح بسيط والحمد لله

نقلنا المسلكين الى جامع اولاد عنان ، بميدان باب الحديد، حيث اسعفه صاحب صيدلية هناك بالعلاج ، ريثما يحضر متطوعو الاسعاف

ومرسى ؟

وجدته عند ابيه فى مساء ذلك اليوم . ووجـدت العلم المصرى الصغير معه ، وعليه اثار الدماء التى تفجرت من جرح رفيقه الشجاع

وكانت الكلمات الاولى التى قابلنى بها صديقى الصغير ، ابن البواب الساذج :

ـ ما تفتكرش يابيه انى هربت من العساكر لانى كنت خايف . لا ابدا . انا هربت علشان ما ياخدوش العلم تانى!

▭

كان رفيق مرسى بطلا فى هجومه على ذلك الجندى وهو يعلم الخطر الذى يستهدف له

وكان مرسى بطلا فى وثوبه على صديقه وانتزاع العلم من يده ، وفراره به فى الازقة

وهرب هذا لم يكن فى نظرى اقل جدارة بالاجـلال من هجـوم ذاك

ففى الهجوم لاخذ العلم ، وفى الهروب به من وجوه أولئك الجنود ، بطولة يزيدها روعة صدورها من صبيين صغيرين ساذجين !

□

لم أعرف شيئا عن مرسى منذ سنة ١٩٢٠

ولم أعرف شيئا عن رفيقه الذى لم أدون اسمه فى مذكراتى ...

فهل يحسن أحدهما القراءة يا ترى ؟

وهل يطلع احدهما على هذه القصة التى ارويها كما دونتها فى ذلك اليوم . فيتذكرنى ويزورنى ، ويمد الى يده لكى أصافحها ، وأصافح معها البطولة الساذجة ـ وهى أروع أنواع البطولة على الاطلاق ؟

أكثر الله من أمثال هؤلاء الابطال ، يوم الكريهة والنزال !

شم النسيم فى المعادى

« نحن ثائرون على الانجليز . فكل ضرر يلحقه مصرى بانجليزى انما هو مساهمة منه فى الثورة ! »

ويصا واصف (١٩٢٠)

كان القمر فى تلك الليلة بدرا كاملا ، ونسيم البحر عليلا وصفحة الماء ساكنة كالمرآة ، ساطعة مثلها تحت الاشعة المنهالة عليها من الفضاء ... والبحر الاحمر عادة هائج متلاطم الامواج متتابع العواصف ، ولذلك فقد اغتنمنا الفرصة السانحة ، صديقى البصرى العراقي ، وانا ، فجلسنا على مقعدين مستطيلين ، فى مؤخرة الباخرة ، نتجاذب اطراف الحديث ونتبادل الذكريات ، تاركين انظارنا تسبح تارة مع البدر فى كبد السماء ، وتارة مع الاسماك الطائرة على سطح الماء ...

وصديقي البصرى جندى قديم عرفته محاربافى صفوف العرب الثائرين سنة ١٩١٧ ، ثم التقينا مرارا فيما بعد ، كانت احداها فى خلال تلك الرحلة ، وعلى ظهر تلك الباخرة التى كان صديقى يعمل فيها كاتبا للحسابات ومندوبا لمخابرة مختلف الجهات فى الموانىء التى تمر بها الباخرة ، بين الهند ولندن ...

وقال لى فى تلك الليلة :

ـ بعد قليل سيجيئنى الى هذا المكان بحار من بحارة هذه الباخرة ، لغرض يتعلق بالعمل ... ولهذا البحار قصة روى لى طرفا منها وكتم الباقى ... وأريد الليلة ان احمله على الافاضة فى الكلام لان قصته تنطوى ، فى اعتقادى ، على مأساة يهمك ككاتب ان تطلع عليها ...

فرحبت بما وعدنى به البصرى . ولم يطل انتظارى ، فقد وافانا بحار فى مطلع العقد الخامس من العمر ، ممتلىء الجسم ، يتمايل فى مشيته ، وبعد اداء المهمة التى جاء من

اجلها هم بالانصراف ، فاستمهله صديقى ، وألح عليه بأن يروى قصته كاملة على مسمع منى ، قائلا له :

ـ هذا كاتب وصحفى من مصر .. وهو يدون فى جعبته ذكريات عن نفسه وعن الغير على السواء

وما كاد صديقي يفوه بهذه الكلمات حتى اقترب منى البحار ، وحدق فى البصر ، ثم جلس على الارض بين المقعدين ، واسند ظهره الى الحاجز الحديدى وقال :

ـ سأقص عليك القصة بكاملها ، واذا أردت أن ترويها على الناس فى مصر فافعل ... فقد مرت على هذه المأساة التى كنت أحد أبطالها فى شبابى سنوات عديدة لعب خلالها الشيب فى راسى ، ومن الذكريات ما يحدث فى النهاية انقباضا فى الصدر ، ففى التخلص منها ترويح للنفس

▭

واصغينا ، صديقى البصرى العراقى وانا ، الى ما رواه ذلك البحار الانجليزى فى تلك الليلة المقمرة :

قبل أن اكون بحارا كنت جنديا فى الجيش البريطانى .. واشتركت فى معارك فلسطين فى الحرب العالمية ، ولم اصب بسوء ، ثم نقلت الى مصر حيث كنت اقيم فى احد المعسكرات فى ضاحية المعادى على مسافة قريبة من القاهرة ، عندما نشبت فى تلك البلاد ثورة عمتها من شمالها الى جنوبها ، سنة ١٩١٩

واشتركت مع زملائى من الانجليز والسكوتلانديين وجنود المستعمرات فى مقاومة الثورة ، وتشتيت المظاهرات ... وكانت الاوامر التى صدرت الينا صارمة حاسمة ، اذ كان علينا ان نقسو اشد القسوة على الثائرين والمتظاهرين ، وان نبطش بهم حيثما نجدهم ، ولا نتردد فى استعمال السلاح واطلاق الرصاص

وقد استمرت تلك الحركة المصرية بضع سنوات ،

لست فى حاجة الى وصف ما حدث خلالها ، فأنتما تعرفانه احسن مما اعرفه ... ولكننى اشرت اليها لان المأساة التى ارويها لكم وقعت لى فى اثناء تلك الفترة المضطربة من الزمن

كان ذلك فى يوم عيد يسميه المصريون « شم النسيم » وهم يخرجون فيه أفرادا وجماعات طلبا للنزهة ، فرحين متهللين .. ولكن الاعياد كانت كئيبة فى مصر خلال تلك الاضطرابات .. وقد صادف مرة أن منحت اجازة لقضاء يوم خارج المعسكر مع رفيق من رفاقى، وكان ذلك اليوم هو يوم «شم النسيم» بالذات .. والحت علينا القيادة بأن لا نبتعد عن مدينة المعادى الصغيرة ، فامتثلنا للامر ، ورحنا نطوف بين الحدائق فى تلك الضاحية الجميلة ، وانتهى بنا المطاف الى شاطىء النيل

وعند الغروب ، لما كنا نهم ـ رفيقى وانا ـ بالعودة الى المعسكر خلف البيوت وبين تلال الرمال ، ابصرنا زورقا يقترب من الضفة ، وفيه فتاة وشاب ، امسكا معا بالمجاذيف وتعانقا فى آن واحد ، ولم يصعب علينا ، من اول نظرة ، ان ندرك غير مخطئين اننا امام عاشقين او خطيبين او عروسين

والتقت عيناى بعينى رفيقى ، فابتسم وابتسمت ، وفطن كل منا الى ابتسامة الآخر ومعناها ومقصدها وفى اقل من لمح البصر انتحينا ناحية ، خلف صخرة شاءت الصدف ان توجدها فى ذلك المكان ، ورحنا ننتظر ونرقب

قفز الشاب الى الضفة وساعد صديقته على النزول من الزورق

واذا بنا فجأة ، وبدون سابق اتفاق بيننا ، نثب من مكمننا على العاشقين ، فأمسك زميلى بالشاب ، وامسكت انا بالفتاة ... فاستغاث الاثنان ولكن بلا جدوى .. فقد

كان المكان مقفرا على الضفة وفى النهر ... وقاوم الشاب محاولا الافلات وانقاذ الفتاة ، ولكن رفيقى كان فارع القامة معروفا بيننا بقوته وشدة بأسه ، فتمكن من توجيه ضربات متوالية بقبضة يده ادمت وجه المصرى وافقدته وعيه ، فجره صديقى من قدميه والقاه فى النيل !

اما انا فقد فقدت صوابى فى تلك اللحظات كما فقد زميلى صوابه ، وكانت الفتاة تتلوى بين ذراعى وتواصل الصياح والاستغاثة ، فوضعت يدى اليسرى على فمها لاكتم صوتها ، وهصرت قامتها بيمناى على امل ان اتغلب على مقاومتها فتسكت وترضخ ، ولا شك فى اننى كنت ، فى تلك الساعة ، قد تجردت من كل عاطفة انسانية ؛ وتحولت الى حيوان يبغى المتعة باى ثمن .. ورأيت زميلى عائدا الى وحالته مثل حالتى ، فقابلت شرر عينيه بشرر من عينى مثله ، وسال لعابى من فمى مثل لعابه ، واقفلت اصابع يدى على وجه الفتاة وضممتها بشدة فعصرتها عصراً ، وجريت بها فى اتجاه الصخرة

ولكن .. ماخطوت بضع خطوات ، حتى شعرت بالجسم البض الذى كنت احتضنه بالرغم منه يتراخى بين ذراعى فتوقفت عن الجرى .. ورفعت اصابعى عن الفم الصغير ، فاذا براس الفتاة يميل الى الامام ... واذا بيديها وقدميها .. اعذرانى اذا وقفت عند هذا الحد من التفصيل فى الوصف .. ويكفى ان تعلما ان الفتاة ماتت بين ذراعى ماتت لاننى اردت ان اكتم صوتها فكتمت انفاسها

وصحونا ، زميلى وانا ، من تلك الثورة البهيمية التى حولتنا الى ذئبين مسعورين ، وجعلتنا نزهق روحين فى دقائق معدودات !

ماذا نصنع بالجثة الهامدة التى لاحياة فيها ؟

اتبعناها بالاولى فالقيناها فى النيل ، وانطلقنا نعدو

مبتعدين عن ضفة النهر ، متلفتين يمينا ويسارا ، وخيل الينا ان شخصا يقهقه ضاحكا بين شجيرات الذرة القائمة على حافة الطريق ، ولم يخطىء سمعنا ... فقد برز امامنا من الناحية الاخرى « ابراهيم الحاوى » فأدركنا انه هو باعث تلك القهقهة !

ويجب ان اخبركما الآن من هو ابراهيم الحاوى : هو شيخ من الاعراب المصريين ، كان يتردد على المعسكر ويعرفه الجنود ويسعون اليه ، لانه كان لطيف المعشر ، يخاطبنا بكلمات انجليزية عجيبة تثير الضحك ، ويعرض علينا العابه الكثيرة ، ومن بينها ترويض الحيات والثعابين ولهذا كان يعرف باسم « ابراهيم الحاوى » وكان دائما يقهقه فترن قهقهته بين خيام المعسكر مثل قرع الطبول

ذلك هو ابراهيم الحاوى الذى التقينا به على مسافة خطوات من ضفة النهر حيث اقترفنا جريمتين ... فهل رأى شيئا ؟ وهل سمع شيئا ؟

حاولنا ان نستدرجه فى الحديث فخيل الينا انه لم يفطن الى المأساة ، واطمأن بالنا ، وواصلنا السير الى المعسكر ، فرافقنا « ابراهيم » ، ولكن ضحكاته كانت متواصلةوكان رنينها يبعث الرعب فى نفوسنا ، لانها لم تكن مثل ضحكاته السابقة !..

واختفى الرجل بين تلال الرمل ..

وفى اليوم التالى ، جاء الى المعسكر جريا على عادته ؛ وبيده زجاجة كبيرة ذات فوهة واسعة وغطاء من الزجاج أيضا ، وبها حيتان صغيرتان ، وقال انه جاء بهما هدية الينا .. وكثيرا ما كان « ابراهيم » يقدم للجنود امثال هذه الهدايا من الحيات والثعابين والضفادع والسلاحف وغيرها من الحيوانات المألوفة فى مصر ، وقد تقبلنا هديته شاكرين واثقين من أن ثعابينه لا تؤذى حتى ولو لدغت حاملها

وغاب الحاوى عن انظارنا منسابا بين الخيام ، بعد ان
ال لنا بلهجة لم ندرك معناها لاول وهلة : « انا مسافر
ى البلد ... الوداع ! »

وبعد ان تناولنا الغداء فى ذلك اليوم جلسنا كعادتنا مع
ميف من رفاقنا ، وجعل كل منا يروى كيف قضى يومه
لسابق ، فى المعسكر او خارجه ، اما نحن فلم نشر طبعا
الى ماحدث لنا ، ولا الى العمل الاثيم الذى أقدمنا عليه ،
بل ادعينا اننا كنا فى صحبة « ابراهيم الحاوى » وانه
اهدانا حيتين صغيرتين جميلتين فى وعاء من زجاج

ونهض رفيقى لساعته ، واسرع الى الخيمة ، وعاد
بالوعاء حيث كانت الحيتان تتململان فى مجالهما الضيق

وصاح الزملاء : « اخرجهما لكى نجعلهما ترقصان على
انغام الناى .. »

وكنت انا العازف على الناى ، تلك القصبة التى تخرج
الحانا شجية ، والتى علمنى « ابراهيم الحاوى » كيف
أنفخ فيها لتلبى النداء وتطرب الانسان والحيوان على
السواء

وكان الناى الذى عزفت به هدية منه ايضا . وقد
ارسلت منه لحنا بعد لحن والرفاق يصفقون ، ثم اقترب
صديقى ووضع الوعاء الزجاجىعلى الرمل امامى ، وسط
تلك الحلقة من الجنود الذين تكاثر عددهم ، ورفع الغطاء
ومال بالوعاء لكى تخرج منه الحيتان الحبيستان

ولكنهما لم تخرجا منه منسابتين متماوجتين ، بل
وثبتا وثبا ، منطلقتين كالسهم المارق ، وفى الوقت نفسه
ارتفعت صيحة ، ثم صيحة ثانية ، وتوالت الصيحات وعم
الهرج والمرج حلقة الجنود وقد نفروا طالبين النجاة

فقد لدغتنى حية فى يدى اليسرى ، ولدغت الثانية
رفيقى فى خده ، وانطلقتا على الرمل كأنهما تبحثان عن
ضحايا اخرى !

لا اطيل عليكما اكثر مما اطلت .. فقد مات رفيقى من لدغة الحية بعد ساعة او اقل ، واسعفت انا بسرعة لان اللدغة كانت بيــدى ، فبتر لى الجراح ذراعي اليسرى فى الحال ، وشاء الله ان يبقينى على قيــد الحياة ... وهذه الذراع التى ترونها ذراع من الخشب !

وادركنا ان « ابراهيم الحاوى » قد رد الثأر لاثنين من مواطنيه ، وانه رآنا بالامس نزهق روح الشاب وروح الفتاة على ضفة النهر ، فعمد الىمعاقبتنامستعينابالحيتين السامتين .. وادركنا ان قهقهته عندماالتقينا به ، وعندما ودعنا فى المعسكر ، كانت للتعبير عن غيظه المكتوم ، وعن تصميمه على الثأر للشابين من قاتليهما

وقد رويت الحادث لرؤسائى من الضباط كما وقع ، بعد ان عاودنى الاطمئنان على حياتى ، فقر رأيهم على التزام الصمت ... وهكذا ظلت جريمتناالمزدوجةمجهولة من الناس ، وظل انتقام الحاوى منى ومن زميلى سرا بيننا وبينه

ولم تطأ قدماى ارض مصر منذ ان غادرتها . وعندما ترسو الباخرة فى احد الموانىء المصرية فاننى لا انزل الى البر ، لاننى لن اعود حيا الى الباخرة اذا وطئتالارضالتى عرفتنى مجرما قاتلا

والاعوام قد مرت ، والحوادث قد تتابعت ... ولكننى لاازال الى الآن ارتعش كلما تذكرت ذلك اليوم المروع ، يوم « شم النسيم » فى المعادى ، الذىكنت سببا فىتحويل افراحه الى اتراح ، بالنسبة الى اسرتين مصريتين ، اسرة شاب وفتاة خرجا للنزهة فكان خروجا لا عودة بعده !

لقد قتلت جنودا من الاعداء ، ولــكننى لم اندم على ما فعلت ... اما قتل تلك الفتاة وذلك الشاب فانهجعلنى اعيش مع وخز الضمير الذى لايفارقنى لابالليل ولا بالنهار

بالرغم من ان الحاوى قد انتقم للقتيلين فمات احدقاتليهما وبقى الآخر مبتور الذراع ، الذراع اليسرى التى اخمدت بها انفاس الحسناء البريئة !. ولا تزال صورتها ماثلة امام عينى ، ولا تزال أيضا قهقهة الحاوى ترن فى أذنى !

▭

سكت البحار .. وظللنا ـ رفيقى وانا ـ صامتين .. ثم نهض الرجل متثاقلا ، ورفع يده اليمنى الى جبهته بالتحية وانصرف ممسكا بها قبضة يسراه الخشبية ..

ولم ينصرف وحده ، بل كان وخز الضمير بلا شك سائرا معه جنبا الى جنب

وتناولت من جيبى ورقة وقلما ، ودونت حديثه هذا على ضوء القمر ، بعد أن قلت لصديقى البصرى :

ـ ما أكثر هذه المآسى الفردية ، المتفرعة من المأساة الكبرى : الاستعمار ! فان انتقام ذلك الحاوى المصرى لشاب وفتاة من مواطنيه ما هو الا جزء من النضال القائم بين المصريين افرادا وجماعات ، وبين الانجليز افرادا وجماعات أيضا ، فى سبيل الكرامة والحرية !

علم .. وقلعة

فى التاسع من شهر أغسطس ١٩٤٦ رفع على قلعة القاهرة علم مصرى صنع لهذا الغرض ، فحل محل العلم البريطاني الذى ظل مرفوعا على هذه القلعة منذ أن دخلها الانجليز فى الخامس عشر من شهر سبتمبر ١٨٨٢

فى السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٣٢ ، وثب الجيش المصرى على أسوار عكاء المنيعة فاقتحمها بعد صراع عنيف ، ودخل المدينة من الثغرات التى احدثتها قنابل مدافعه وكان رابع الداخلين اليها الجندى « طه الكفراوى » حامل العلم ، فتناوله من يده قائد المدفعية « سليم بك أوتزبير » وركزه فى اعلى البرج المشرف على الباب الشرقى

وفى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر من السنة ذاتها فى معركة قونية ، كان طه الكفراوى يحمل ايضا علما من الاعلام المطرزة المزركشة ، وقد عهد اليه فى استنهاض همة الفرسان من رجال البادية واستنفارهم ، فأصيب بخمسة جراح فى حومة القتال ، ولكنه ظل محافظا على علمه وتمكن من الافلات من الاسر ، بمعونة شيخ بدوى زوجه ابنته فيما بعد . غير ان الجراح سببت له عاهة دائمة ، فارسل الى مصر حيث الحق بالحامية فى قلعة القاهرة ، وهكذا ظل الجندى الاعرج الشجاع يتولى العناية بالعلم المرفوع على ساريتها

اما العلمان ، علم عكاء وعلم قونية ، فقد ضما الى اعلام المعارك المحفوظة فى قاعة السلاح بالقلعة

وراودت طه الكفراوى امنية سعى الى تحقيقها حتى اجابه رؤساؤه الى طلبه ، وهو أن يكون ابنه الوحيد جنديا فى الجيش ، وان يحمل العلم فى طليعة الصفوف كما فعل ابوه من قبله

▭

ارسل السلطان العثمانى عبد المجيد يستنجد بمصر

لما زحفت جيوش القيصر الروسى على الاستانة ، فانجدته مصر بحملة برية قوامها خمسة عشر الف مقاتل ، حملتها عمارة بحرية الى ضفاف البوسفور ، ثم الى ميادين القتال فى البلقان والقرم . وانحازت بريطانيا العظمى وفرنسا فى ذلك الصدام الى الدولة العثمانية ، خوفا من ان تسبقهما روسيا القيصرية الى التسلط على المضايق .. وقد اشتركت الحملة المصرية فى جميع المعارك التى دارت رحاها فى تلك البقعة من الارض واستبسل رجالها فى القتال ، وكللت بسالتهم بالغار ، فكان النصر فى تلك الحرب حليف الجيوش العثمانية وحلفائها ، وابتعد الخطر عن الاستانة الى حين !

وفى شهر مارس سنة ١٨٥٦ ، ابحر الجنود المصريون عائدين الى وطنهم ، وكان بينهم احد حملة الاعلام فى الميادين « سيد الكفراوى » ابن طه الكفراوى ، حامل العلم فى حروب الشام ، وقد جرح فى حومة القتال مثل ابيه !

فقد سيد الكفراوى ذراعه اليمنى وعاد الى امه البدوية المتحضرة ، بذراع واحدة ، فاستقبلته ابنة الشيخ الذى انقذ اباه فى معركة قونية ، باطلاق الزغاريد وانشاد الاهازيج الحماسية ، كما كانت تفعل فى صباها وهى تجتاز الصحارى والقفار مع فرسان القبيلة ، طلبا لغزو أو سعيا وراء ثأر !

وضمت اعلام البلقان والقرم المطبوعة بطابع المجد والفخار الى اعلام الشام والاناضول المظفرة فى قاعة السلاح بقلعة القاهرة

وختمت حياة سيد الكفراوى كجندى ، ولكنه الحق بالخدمة فى ثكنات القلعة ، فحل محل ابيه ، على أن يظل محتفظا بثوبه العسكرى مثله ، ويموت حيث مات

وكما وعد طه الكفراوى بأن يصبح ابنه جنديا ومن حملة الاعلام وبر بوعده ، استجيبت ايضا امنية سيد الكفراوى

بان يصبح ابنه جنديا مثل ابيه وجده ، وحاملا للعلم مثلهما ولكن « حسن الكفراوى » ابن سيد الكفراوى ، كان فى ذلك الوقت طفلا فى الخامسة من العمر ، ماتت امه وهو فى المهد وتولت جدته تربيته ، ولم يتخذ ابوه زوجة اخرى

□

مرت ست وعشرون سنة ، كانت السنوات الاخيرة منها مفعمة بالمكائد الاوروبية المنصوبة لمصر ، وبالمطامع الاستعمارية الحائمة حولها . وفى سنة ١٨٨٢ ، غلت المراجل ، ثم انفجرت فجأة على أثر حادث تافه وقع فى الاسكندرية بين رجل مصرى يملك حمارا ورجل مالطى فى الحادى عشر من شهر يونيو ، فعمت القلاقل والاضطرابات واسرع الاسطول البريطانى الى الثغر فضرب قلاعه وتحصيناته بالمدافع ونزل الى البر جيش أعدته بريطانيا من قبل لغزو مصر !

واندفع الجيش المصرى بقيادة احمد عرابى وصحبه الى منطقة قناة السويس ، لصد الغزاة ومنعهم من الوصول الى القاهرة ، وكان الجندى حسن الكفراوى ـ احد حملة الاعلام فى الجيش ـ يقضى اجازة مرضية قصيرة فى كفر الدوار مسقط رأسه ، حيث تقيم زوجته واطفالها وسمع صوت الضمير يهيب به أن قم فواجبك العسكرى فى غير هذا المكان ، فقام بالرغم من مرضه الذى كان يقعده عن خوض غمار القتال . ولم يكن فى استطاعته ان يصل الى قلعة القاهرة حيث مقر فصيلته . وكان كثيرون من سكان المدن ومزارعى الأرياف ، يهرعون الى مراكز الحاميات المصرية ومعسكراتها ، عارضين أنفسهم للتطوع ، طالبين سلاحا للدفاع ، ففار فائر الحماسة فى صدر حسن الكفراوى فطلب من زوجته وجاراتها ان يصنعن له علما مصريا، جعل

يطوف به فى العزب والمزارع ، فجمع حوله طائفةمن الشبان سار بهم جريا على الاقدام الى التل الكبير ، فبلغوها فى الحادى عشر من سبتمبر والمعركة تشرف على النهاية،وقد تفككت اوصال الجيش المصرى بفعل عوامل عديدة لم يكن الخلاف بين القواد وخيانة بعضهم اقلها شأنا وراح كل من المحاربين يطلب لنفسه النجاة ، بعد ان سقط فى الميدانمن سقط وجرح من جرح

تفرق الشبان رفاق حسن الكفراوى ، ولكن الرجل ابى ان يمزق العلم او يلقيهمن يده ، وقيضت له الصدفةجوادا هائما بين الرمال وقد سقط فارسه صريعا ، فامتطىحامل العلم صهوته ، وانطلق ينهب الارض نهبا فى طريقه الى القاهرة ، فبلغ القلعة فى اليوم التالى ، وقد التهب رأسه بالحمى وخارت قواه ، ولكنه تجلد حتى تمكن من الوصول الى قائده ورئيسه « الماظ رفعت » فى مقره داخلالقلعة ، فالقى بالعلم بين يديه ، وقص عليه ما حدث له ولرفاقه ، ثم انتابته رعشة سقط معها على الارض فاقد الحياة !

فى الخامس عشر من شهر سبتمبر ١٨٨٢ ، دخل الجنود البريطانيون قلعة القاهرة ، وخرجت منها حاميتها المؤلفة من أربعة آلاف رجل ، ورفع على ساريتها العلم البريطانى حتى انزل عنها فى شهر يوليو ١٩٤٦ ليعود العلم المصرى الى مكانه

ففى يوم الجمعة التاسع من شهر اغسطس ١٩٤٦ — الثانى عشر من شهر رمضان ١٣٦٥ — رفع علم صنع خصيصا لذلك اليوم المشهود ، على سارية تناطح الفضاء نصبتعلى قاعدةتذكارية ، وضع تصميمها المهندسسحاب الماظ ، حفيد الضابط الماظ رفعت ، الذى كان آخر من غادر القلعة من الضباط العظام ، فى يوم احتلالها المشئوم سنة ١٨٨٢

هذه قصة الجد والاب والحفيد ، طه وسيد وحسن الكفراوى ، حملة الاعلام ، رواها لى شيخ العروبة احمد زكى باشا رحمه الله ، عن مذكرات محفوظة فى « المكتبة الزكية » التى تركها بعد موته هدية الى الامة المصرية

ومن يدرى ؟ فقد يكون بين رجال الجيش المصرى الذى اعاد الى مصر كرامتها ، واحد او اكثر من احفاد حسن الكفراوى ، حامل العلم الذى صنعته أيدى الريفيات من نساء كفر الدوار

احتلال وجلاء

فى ٣١ مارس ١٩٤٧ تم جلاء الانجليز عن القاهرة والدلتا . وقبل ذلك التاريخ بمائة وأربعين سـنة ، حاول الانجليز احتلال مصر ولكنهم اكرهوا على الجلاء عنها ، فى شهر مارس ايضا . ولـكل اجل كتاب ، ولكل احتلال جلاء !

قضى الشيخ « طراف ابو غازى » ثلاثة ايام فى «رشيد» يقايض التجار على ماكان يحمله من صوف وسمن وزبدة، فعقد معهم بضع صفقات رابحة ، ثم اعتزم الرحيـــــل فى اليوم التالى عائدا الى اهله وعشيرته

هو اعرابى من قبيلة « الحويطات » تزوج «صائبة» بنت الشيخ « حمود الفايز » من قبائل «ولد على » بالصحراء الغربية ، فرزق منها ثلاث بنات ، اكبرهن فى الخامسة عشرة واصغرهن فى العاشرة وكان يملك ماشية عديدة ينتقل بهامع بنى قومه فى حقول الوجه البحرى ومراعيه ، ويجنى من بيع لحومها وأصوافها والبانها أرباحا طائلة . وماكانت صفقة رشيد التى عقدها فى تلك الايام الثلاثة ، غير واحـــدة من عشرات الصفقات السنوية ، التى كان يعود بعدها الى قومه مثقلا بالهدايا ، عامر الجراب بالمال

لكن الاقدار شاءت الا يعود الشيخ الى قبيلته ،بعدتلك الرحلة الموفقة الى رشيد ، فقد افاق من نومه على اصوات المنادين ترتفع فى الحوارى والازقة ، منبئة بان الانجليز سيداهمون المدينة بين لحظة واخرى ، وبان الحاكم يدعو السكان الى التزام السكينة ، والبقاء فى بيوتهم ، وعدم التعرض للغزاة القادمين ، وانتظار اوامر جديدة تصدر منه

وتساءل الناس ماذا حدث ، ومن اين آتى اولئك الاجانب وكيف وصلوا الى مدينتهم فى غفلة من الحاميات المنتشرة على طول السواحل المصرية . وعلموا ان ماحدث امر فى غاية الخطر !

مات زعيما المماليك فى مصر : عثمان البرديسي ومحمد الالفي وخلا الميدان بموتهما لمحمد على فانصرف الى توحيد السلطة فى يده ، وكانت اوروبا لمصر بالمرصاد . فجردت حكومة بريطانيا العظمى حملة قوامها سبعة الاف مقاتل لاحتلال وادي النيل . فوصلت الحملة بقيادة الجنرال «فريزر» أمام ميناء الاسكندرية فى السابع عشر من شهر مارس سنة ١٨٠٧ ، ونزل الفاتحون فى ضواحيها وضربوا عليها الحصار ثم اسرعوا فى ارسال قوة الى مدينة « رشيد » لاحتلالها ايضا قبل ان تصل اليها النجدة من القاهرة ، وما دخل الانجليز المدينة حتى خيل اليهم انها خاوية ، خالية من الجند والسكان ، فانتشروا فى جميع الجهات ، يغنون ويهتفون ، ويلقون سلاحهم جانبا مطمئنين مندهشين !

لكن الحاكم الداهية ــ على بك السلانكلى ــ عرف كيف يوقعهم فى الفخ الذى نصبه لهم !

وبينما هم فى فرح ومرح وقد ظنوا انفسهم فى مأمن من كل خطر ، اذا بسطوح المنازل ونوافذها تمطرهم وابلا من القذائف الفاتكة ، واذا بالابواب تنفتح على الحوارى والازقة ويتدفق منها الى الخارج سيل من الجند والسكان والاعراب المسلحين ، فيأخذون الانجليز على غرة ، ويذبحونهم ذبح الانعام حتى ابادوهم عن آخرهم ، ثم يسوقون الاسرى ويرسلون رؤوس القتلى مع كوكبة من الفرسان الى القاهرة

واستشهد فى تلك المعركة التحريرية بضع عشرات من السكان والعربان ، بينهم الشيخ طراف ابو غازى الحويطاتى الذى ابى الا ان يساهم فيها بنصيب

□

بلغ خبر مصرع الشيخ مسامع زوجته وبناته فخرجن وقد حللن الشعور وخضبن الايدى والوجوه بالرماد ، وانتضين السيوف ورفعن العقائر صائحات : « يالثارات

العرب ! » وتجاوبت الاصوات هادرة متماوجة سابحة من مضرب الى مضرب ، ومن حى الى حى ، واقبل العربان من كل ناحية وصوب ، وقد لمعت فى أكفهم النصال ، وغلت الدماء فى عروقهم لهذا العدوان المزدوج الذى وقع على شيخ العشيرة ومرابع الحمى ، فالتفوا حول صائبة وبناتها ، ملبين النداء ، مسارعين الى الفداء !

▭

وكان جيش مصرى صغير قد اتجه مسرعا من القاهرة الى الساحل المصرى المهدد ، فانضم اليه فى الطريق كل قادر على حمل السلاح ، وكان الانجليز فى الوقت نفسه قد جردوا حملة اخرى غادرت الاسكندرية فى طريقها الى رشيد لمحو الهزيمة المنكرة ، فاذا هم يضيفون اليها هزيمة جديدة !

ففى الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٠٧ ، وهو اليوم الذى سلمت فيه الاسكندرية الى الجنرال « فريزر » وقع اصطدام بين الجيش المصرى والحملة الانجليزية بقيادة الجنرال « ستيوارت » على مقربة من رشيد ، فتراجع الانجليز متقهقرين الى « الحماد » حيث حاولوا الاعتصام فى التلال والصمود امام الجيش المصرى ، لكن المصريين لحقوا بهم الى ذلك الميدان ، حيث اشتبكت القوتان فى الثلاثين من شهر مارس فى عراك لم يدم طويلا ، فانسحب ستيوارت وجد فى السير نحو الاسكندرية طلبا للنجاة من مصير ادرك انه لن يختلف عن مصير الحملة السابقة !

وانطلق العربان فى أثر الجيش المنسحب تتقدمهم صائبة وبناتها ، طلبا لثأر الشيخ القتيل وانتقاما للحمى المستباح ، فتم لهم ما أرادوا ، فى اسرع مما كانوا يظنون !

اما الجيش المصرى فقد واصل الزحف الى الاسكندرية حيث امتنع الانجليز عن منازلته ، ودخلوا فى مفاوضات اسفرت عن جلائهم التام ، وبلا قيد ولا شرط !

أربع رؤوس

في سنة ١٨٠٧ ، حاول الانجليز احتلال مصر ، فردهم المصريون على اعقابهم . وهذه قصة امرأة مصرية قتل الانجليز زوجها فثارت له بقتل أربعة من جنودهم!

ختم « على بك السلانكلى » حاكم مدينة « رشيد » حديثه مع سامعيه قائلا :

ـ لقد بسطت لكم الموقف على حقيقته . واعود فألخصه لكم فى عبارات وجيزة : فالانجليز يحتلون مدينتنا منذ أمس . ولكن عددهم قليل بالنسبة الى عدد السكان . وفى وسعنا ، لو أخذناهم الليلة على غرة ، وفاجأناهم بهجوم لا ينتظرونه ولايحسبون له حسابا ، ان نذبحهم عن آخرهم او ان نطردهم من المدينة على الاقل . وقد اصدرت اوامرى الى الجنود الذين تحت امرتى ، بان يبدأوا اطلاق النار بعد غروب الشمس ، وجاءتنى نجدة من العربان لتشد ازر الجند . ولكننى فى حاجة الى مساعدتكم انتم يا ابناء رشيد . فهل تقسمون على الثورة فى وجه الغاصبين والتعاون مع الحامية فى طردهم ؟

فانطلقت من صدور الحاضرين همهمة ، هى مزيج من الغضب والرغبة فى الثأر ، وتتابعت الردود بالايجاب على سؤال الحاكم : « نعم ، نعم ، نحن مستعدون للثورة ! »

ونهض من بين الحاضرين شخص ملثم كشف عن وجهه فاذا به امرأة فارعة القامة حادة النظرات يتطاير الشرر من عينيها . وبهت الحاضرون لحظة ، ثم أصغوا الى المراة وهى تخاطبهم قائلة :

ـ يا مواطنى الأعزاء .. قد يعرفنى بعضكم .. ولكننى مجهولة من معظمكم ، لاننى قروية زوجة فلاح قضى حياته فى الحقول والمزارع .. انا « نفيسة » زوجة «على عامر» الذى اغتاله الجنود الانجليز منذ يومين ، وهم فى طريقهم

الى هذه المدينة ، وقطعوا رأسه وحملوها على سنان رمح وقد رآها الكثيرون من السكان عندما طاف بها أولئك العلوج الاجلاف فى الشوارع والازقة !

وسكتت المرأة هنيهة ، وحبست دمعها قبل ان يطفر من العينين ، ثم استطردت تقول وسط السكوت الذى عم المجلس :

ــ ان نفيسة زوجة الفلاح القتيل ، وابنها « احمد على » البالغ من العمر عشرين عاما ، وابنتيها « حميدة » و « فريدة » ــ وهما دون الثامنة عشرة ــ اننا جميعا ، ايها الحاكم ، وأيها المواطنون ، نعد انفسنا جنودا من جنود الثورة ، ونرجو ان تفعل كل اسرة فى مدينة رشيد مثلما نفعل نحن .. وقد اقسمنا ، انا وابنائى ، على ان لانذوق الراحة ، ولا نستلقى على فراش ، قبل أن يقتل كل منا واحدا من الاعداء ، ويرفع رأسه على سنان رمح ، كما فعل الاعداء بقتيلنا !

فنهض على بك السلانكلى من مقعده ، واقترب من المرأة باسطا يده لمصافحتها ، قائلا لها بلهجة تنم عن التأثر الشديد :

ــ بارك الله فيك يا نفيسة ! وبارك الله فى ابنائك ..!

فصافحته المرأة وقالت :

ــ وما جئت الى هنا الا لكى اطلب منك اربعة رماح ايها الحاكم ، فهل لك ان تأمر لى بهذا السلاح ؟

▭

ظل الانجليز منذ سنة ١٨٠١ الى سنة ١٨٠٧ ، يتحينون الفرص للانقضاض على مصر واحتلالها بعد خروج الفرنسيين منها ، وتحرشوا فى سنة ١٨٠٧ بالدولة العثمانية وارسلوا أساطيلهم لاقتحام المضايق والاستيلاء على الاستانة ، ولكنهم فشلوا . فارتدوا الى مصر وظنوا ان الظروف

تساعدهم لتحقيق ما كانوا يصبون اليه ، وان فى وسعهم النزول فى الاسكندرية والانطلاق منها الى القاهرة، معتمدين على مساعدة فريق من المماليك

وفى ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ ، وصلت الحملة الانجليزية الى ميناء الاسكندرية ، وسلمت المدينة بعد دفاع ضعيف ونزل سبعة آلاف جندى انجليزى الى البر بقيادة الجنرال « فريزر » الذى سير فى الحال فريقا من جنوده الى مدينة رشيد ، فاحتلوها أيضا ، واعتقدوا ان الامر قد استتب لهم ، وانهم لن يجدوا مقاومة تذكر ، مادامت المرحلة الاولى قد انتهت بمثل هذه السرعة ، وهذه السهولة

وفى طريقهم الى رشيد ، نهب الانجليز محصول الارض وقتلوا كل من اعترضهم فى طريقهم ، وكان « على عامر » زوج « نفيسة » بين ضحاياهم ، اذ ذبحوه فى وسط حقله ورفعوا رأسه على رمح كما روت زوجته لاعيان رشيد ، فى ذلك المجلس الذى جمعهم فيه حاكم المدينة على بك السلانكلى ، ليدعوهم الى الثورة وطرد الاغراب الغاصبين

□

اوفد الحاكم رسله الى المدن والاقاليم لنشر خبر احتلال مدينته ، وسقوط الاسكندرية من قبلها ، وحاجة السكان الى النجدة ، وواصل بعض اولئك الرسل طريقهم جنوبا لنشر الخبر فى انحاء البلاد

واندفع الناس نحو الاسكندرية ورشيد ، بعضهم يشرع سلاحا ، وبعضهم يحمل العصى والنبابيت ، وبعضهم اعزل من كل سلاح غير الايمان بحقه ، والوثوق من انه سيجد سلاحا فى متناول يده ، فى اللحظة الاخيرة الحاسمة

وفى الموعد الذى حدده على بك السلانكلى ، الحاكم الابى الشجاع ، وثب سكان مدينة رشيد الاشاوس ، وجنود

الحامية ، ومن التحق بهم من عربان الوجه البحرى ، والفلاحين والرعاة ، على الجنود الانجليز المنتشرين فى الشوارع والازقة والطرقات ، وكانت الوثبة مفاجئة ، فأخذ العدو على غرة ، كما كان الحاكم يرجو ويرتقب ، وتعالى الصياح وسالت الدماء ، ودار القتال بالسيوف ، والرماح ، والخناجر ، او بالعصى ، والحجارة ، والايدى .. فالثائر الراغب فى قتل عدوه لا تعوزه الحيلة ، ولا يعدم وسيلة للتخلص من ذلك العدو

وتراجع الانجليز مهزومين وخرجوا من المدينة لايلوون على شىء ، تاركين فى ميدان القتال عددا كبيرا من جثث القتلى ، وتاركين ايضا جرحاهم الذين تعذر عليهم نقلهم معهم فى فرارهم السريع

وكانت النجدة فى خلال ذلك تجد فى السير ، ووجهتها مدينة رشيد الباسلة ، لانقاذها واتخاذها قاعدة للوثوب منها على الاسكندرية

هال القائد الانجليزى العام ، الجنرال فريزر ، ان يصاب فريق من جيشه بتلك الهزيمة البشعة ، على يد شرذمة من الجند ، وجماعات مسلحة واخرى عزلاء من السكان المدنيين ، فسير حملة اخرى لاسترجاع مدينة رشيد ، والاقتصاص من اهلها ، على امل ان يبطش بهم وينكل ، ويجعلهم عبرة لغيرهم ممن قد يفكرون فى الانتقاض على الانجليز ، ورفع راية العصيان عليهم ، والالتجاء الى الثورة لاخراجهم من المدن التى يحلون فيها

ووصلت الحملة الانجليزية الثانية الى رشيد ، ولكن الجيش المصرى كان فى الوقت نفسه قد وصل اليها من الجنوب

وفشل الانجليز مرة اخرى فى الاستيلاء على رشيد والبقاء فيها

وفى ٣٠ مارس سنة ١٨٠٧ ، كان الجيش المصرى قد اعد عدته ، ورتب صفوفه ، واستعد لمنازلة جيش الاعداء فى « الحماد »

وبدأت المعركة بين الفريقين ، ولكن القائد الانجليزى ادرك منذ الاشتباك الاول ، ان جيشه معرض للفناء ، وان خير وسيلة لانقاذه هى الارتداد بسرعة الى الاسكندرية، والاحتماء فيها

وتقهقر الانجليز بعد قتال قصير ، وكان همهم الوحيد أن يحموا ظهورهم ويصلوا الى مراكز الامان بسلام

وانطلق المصريون خلفهم يطاردونهم وينكلون بهم ،وكانت كتائب المتطوعين من أبناء رشيد تسير فى طليعة المهاجمين وبينها كتيبة تتقدمها « نفيسة » زوجة « على عامر » ، وابنها « احمد » ، وابنتاها « حميدة » و « فريدة » ، وقد رفع كل من أفراد هذه الأسرة رمحا غرست فى سنانه رأس جندى من الاعداء !

وتساءل القواد والجنود مستفسرين عن سر هذا المشهد العجيب ، فانطلق الجواب من مئات الحناجر :

ـ اعلام رشيد ! .. هذه اعلام رشيد !

وروى الرواة من الرشايدة خبر قطاع الرؤوس من اسرة على عامر ، وكيف ان زوجة الفلاح الشهيد اقسمت ان تثأر لزوجها الذى قتله الانجليز ، بقتل اربعة من الاعداء تحمل رؤوسهم مع ابنائها على اسنة الرماح ، كما حمل القتلة رأس الزوج القتيل على سنان رمح ، يوم دخلوا رشيد منتصرين !

لو قتل المصريون اربعة من اعدائهم مقابل كل شهيد يقتله الاعداء ، لما استطاعت جيوش الارض مجتمعة ان تحتل هذا الوادى !

وقد انطلق الجيش المصرى فى اثر العدو الهارب ، الذى تمكن من الاحتماء بالاسكندرية ، وقطع سدود «مريوط» لاغراق السهول الممتدة حول المدينة ، ليقيم بينه وبين الجيش المصرى حاجزا من المياه

ولكن الحاجز لم يحمه غير خمسة شهور ، اقلعت بعدها اساطيل الانجليز ، عائدة بالغزاة من حيث اتوا ، وتحررت مصر من القراصنة !

مصرى فى حرب البوير

فتل الانجليز اباه فى مصر ، وقيدوا وطنه بالسلاسل ، فسعى الى الثار لابيه والانتقام لوطنه ، وقادته المصادفة فى هذه السبيل الى اقصى الجنوب الافريقى !

رحب القائد البويرى الجنرال « بوتا » بالغريب الذى تقدم اليه طالبا الالتحاق بالثائرين واخذ نصيبه من القتال، وامر بأن يعطى سلاحا وذخيرة ، وربت على كتفه قائلا : « انني لا الح عليك بالسؤال ايها الغريب ، واكتفى بما عرفته عنك : فأنت مصرى تضمر فى نفسك الكره والحقد للانجليز الطامعين فى بلادنا ، وقد جئت تسعى الى الثأر فى صفوفنا من اولئك الطغاة الذين غزوا بلادك وحلوا فيها زائرين بغير موعد ، وضيوفا بغير دعوة ! »

فأجاب الرجل بصوت تخنقه العبرات : « وانا اشكرك أيها القائد على استجابة طلبى وتحقيق امنيتى . واقسم لك بأن اكون عند حسن ظنك بى، محاربا لا يعرف الراحة، ومقاتلا لا يعرف الهوادة . وسيكون الله معك ومع قومك البوير ، لانكم على حق والانجليز على ضلال ! »

والتحق الغريب بجماعة من الفلاحين التائرين ، وانطلق معهم فى الغابات والجبال ، يطارد الجنود الانجليز ويهاجم معاقلهم ، ويستبسل فى القتال ، ويدفع اليه رفاقه صائحا فيهم باللغة العربية : « الله اكبر ! والموت للظالمين ! »

وظلت تلك الصيحة ــ صيحة « على موافى » المصرى ، ابن الحاج موافى محمد ــ تدوى فى هضاب افريقيا الجنوبية سنتين وبعض السنة ، وتلقنها عنه الثائرون البوير وحلفاؤهم من الزنوج ورجال القبائل ، الذين اضافوا تلك العبارة العربية الى أهازيجهم الحربية : « الله اكبر ! والموت للظالمين ! »

فى أواخر سنة ١٨٩٩ ، تشاور زعماء اقليمي ترنسفال واورانج بافريقيا الجنوبية فيما بينهم ، واتفقت كلمتهم على المبادرة الى محاربة الانجليز قبل أن يشتد ساعدهم ، ويكتمل تسليحهم ، وينقضوا على ما بقى من البلادليلتهموه كما التهموا من قبل شطرا منها ، ويضموا الاقاليم الافريقية الجنوبية الى املاك امبراطوريتهم

وكان يسكن تلك البلاد جماعة من المهاجرين يعرفون باسم « بوير » ومعناها بالهولندية « الفلاح » لان معظمهم من اصل هولندى . فلبى هؤلاء البوير ، وهم اصحاب الاراضى ومستغلو خيراتها ، نداء زعمائهم ، وبادروا الى حمل السلاح لصد الغزاة الطامعين ، وحالفهم سكان البلاد الاصليون من زنوج ومولدين ، واندفعت جموع الثائرين من الشمال نحو الجنوب ومن الغرب نحو الشرق ، وفى ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٩٩ حلت بالانجليز اول حلقة من سلسلة الكوارث التى جرتها عليهم تلك الحرب الطاحنة ، فهزم قائدهم الجنرال «وايت» فى معركة « دوندى » هزيمة منكرة ، وتدفق جيش البوير الظافر على مدن مستعمرة « ناتال » ووجهته الطرف الاسفل من الممتلكات الانجليزية ، فى مستعمرة « كاب »

وفى شهر يناير سنة ١٩٠٠ ، كان البوير يسيطرون على معظم تلك الممتلكات ، ويهددون الغزاة الانجليز بالهلاك الماحق ، فجردت بريطانيا العظمى لمحاربتهم جيشا قوامه مائة وخمسون الفا من الضباط والجنود ، وعهدت بقيادته الى اشهر رجال الحرب فى ذلك الوقت ، الجنرال روبرتس . .

وكان أحد القواد البوير ، الجنرال بوتا ، قد هزم القائد الانجليزى « بولر » فى ٥ ديسمبر ١٨٩٩ ، وارتفع نجمه بين زعماء الثورة ، فاتجهت الانظار اليه لاختياره قائدا عاما لجيوش البوير مجتمعة ، بعد مصرع قائدهم الاكبر الجنرال جوبير . . .

وتم ذلك فى شهر يناير سنة ١٩٠٠ . وفى تلك المناسبة ،

حضر الى مقر القائد الجديد ذلك المتطوع الغريب ، الذى جاء يقول انه مصرى يبغى الثأروالانتقام ، فرحب به الجنرال بوتا والحقه برجاله الاشاوس فى الميادين ...

□

كان « على موافى » فى الثامنة عشرة من العمر ، عندما غادر بلدته فى صعيد مصر ، ورافق اباه « الشيخ موافى محمد » فى موكب مشايخ الطرق واتباعهم ، الذين احتشدوا فى مدينة المنيا ، وزحفوا بزعامة « الشيخ عبد الجواد المنياوى » تخفق فوق رؤوسهم الاعلام ، وتحدوهم الاناشيد الوطنية والترانيم الدينية ، للالتحاق باحمد عرابى باشا وجيشه المعتصم فى التل الكبير ، لوقف الانجليز فى طريقهم الى القاهرة ، بعد ان اعتدوا على مصر ، وانزلوا فيها جيشهم ، وانتهكوا حياد قناة السويس ، واتخذوها طريقا لغزوهم ..

وفى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ ، قتل الشيخ موافى محمد فى معركة القصاصين ، التى بذل فيها المصريون ــ ولكن بدون فائدة ــ جهدا جبارا لصد التدفق الانجليزى على طريق القاهرة ، واصيب على موافى بجرح فى ذراعه اليسرى ، ورات عيناه الدامعتان جثة ابيه مخضبة بالدماء ومغطاة بالعلم الذى كان الشيخ الشجاع يحمله فى اثناء القتال ، ورأت عيناه الدامعتان أيضا تغلغل الانجليز فى أرض الوطن ، وانسيابهم كالأفاعى بين الرمال والغيطان نحو العاصمة . وادرك الشاب أن كارثة قد حلت ببلاده على ايدى أولئك الأغراب ، وأن مصر ــ الوطن الذى يحبه ــ قد وصلت الى مفترق طريقين ، ولت الحرية من احداهما ، ووفد الاحتلال من الاخرى !

وهام « على موافى » على وجهه بين الكثبان والتلال ، يبكى اباه ويبكى وطنه ، ويرجو ان تتاح له الفرصة لينتقم لهذا ، ويثأر لذاك ! ..

ووصل الى السويس ، حيث كانت البواخر القادمة من البحر الاحمر لا تجرؤ على مواصلة السير لاجتياز القناة ، فتلقى مراسيها فى الميناء المصرى، فى انتظار تطورات الحوادث، او تبحر عائدة فى الطريق التى جاءت منها . .

وخطر لعلى موافى ان يطلب عملا فى احدى تلك البواخر، وأن يسافر بها الى حيث تسوقه الاقدار . فكان له ماتمنى، وساقته تلك الاقدار بعد رحلة طويلة شاقة ، الى ميناء «بورت ناتال» المعروف ايضا باسم « دوربان » على الساحل الشرقى لمستعمرة ناتال بأفريقيا الجنوبية . . .

واختلط المهاجر المصرى بجماعة من المهاجرين العرب ، الوافدين من حضرموت وعدن وزنجبار ، وطابت له الاقامة بينهم ، فاستوطن البلاد ، وتعلم لغة اهلها ، وابتسم له الحظ فوجد عملا جعله فى مأمن من الفاقة ، بل جمع بعد بضعة اعوام ثروة صغيرة راح يستغلها فى راحة وأمان . .

ومرت الاعوام وعلى موافى لا يعلم من اخبار وطنه مصر غير النزر اليسير ، الذى يحمله اليه من وقت الى آخر مسافر قادم من الشمال ، أو يرويه الناس نقلا عن السنة الانجليز انفسهم ، اذ ان الانجليز كانوا قد تسربوا الى وطن على موافى الجديد ، كما تسربوا الى وطنه القديم !

ولما نشبت الحرب بين البوير والجيوش البريطانية ، تحركت فى صدر المهاجر المصرى كوامن الذكريات، وتفجرت معها مراجل الحقد ، وصحت الرغبة فى الثأر والانتقام !

ان العدو الذى قتل اباه فى معركة القصاصين سنة ١٨٨٢، والذى دنس ارض وطنه مصر وسلبه حريته ، هو هوذاك العدو الذى فعل هنا ما فعله هناك ، والذى جرد سكان أفريقيا الجنوبية السلاح فى وجهه ، وراحوا ينازلونه فى الميادين !

اذن ، فالفرصة سانحة . وسوف يقتنصها على موافى

ليثأر للدم المسفوك والحرية المسلوبة . وسوف يحارب الانجليز فى الاقاليم الواقعة فى الطرف الجنوبى لافريقيا ، من اجل مصر الواقعة فى طرفها الشمالى !

وتقدم على موافى المصرى الى الجنرال بوتا البويرى فأكرم وفادته . وكان المتطوع الراغب فى الثأر قد بلغ السادسة والثلاثين ، وقد مرت على مصرع ابيه ومصرع وطنه ثمانى عشرة سنة !

وافرغ على موافى شعوره فى صيحته : « الله اكبر! والموت للظالمين ! »

□

فى سنة ١٩٠٠ ، وقعت بين الانجليز والبوير معارك دموية ، اشترك على موافى فى بعضها ، وحارب فى باردبرج وبلومفونتن وبريتوريا . ولكن الانجليز تغلبوا فى النهاية على مقاومة الثائرين ، واعلنوا ضم اقليم اورانج واقليم ترنسفال الى أملاكهم الامبراطورية ، واضطر الثائرون الى تحويل القتال الى حرب عصابات فى الجبال والوديان والسهول والغابات. والتحق بهم آلاف من المتطوعين من كل جنس وكل بلد : فجميع سكان افريقيا الجنوبية ، ايا كان الاصل الذى ينتمون اليه ، تضافروا وعقدوا الخناصر على مقاومة الغزاة الى اقصى حدود المستطاع !

وخلف الجنرال روبرتس فى قيادة الجحافل الانجليزية قائد آخر اثبت فى الحروب السابقة دهاءه المشبع بالقسوة والبطش ، ذلك القائد الجديد هو الجنرال كتشنر ، الذى رد على انتصارات البوير فى حرب العصابات التى نجحوا فيها ، باعتقال نسائهم واطفالهم وحشد ذلك القطيع المسالم فى معسكرات لا يتوفر فيها شيء من اسباب الراحة فمات منهم آلاف جوعا وعطشا وبردا ومرضا وحرمانا . . !

وجمع البوير جموعهم لتسديد ضربتهم الاخيرة الى الانجليز ، فوثبوا على الجنرال « ميتوين » وجيشه فى بلدة « تويبوش » فى السابع من شهر مارس سنة ١٩٠٢، ومزقوا صفوف أعدائهم تمزيقا ، واسروا القائد الانجليزى وبضع مئات من ضباطه وجنوده ...

وفى معركة تويبوش سقط على موافى المصرى قتيلا وسيفه بيده ، وكانت آخر كلماته تلك الصيحة التى ألفها منه البوير ورددوها معه : « الله اكبر ! والموت للظالمين ! »

شاءت الاقدار ان لا يشعر على موافى بخيبة الامل قبل أن يغادر هذا العالم الى جنة الخلد . فقد غسل الدم بالدم، وحارب عدو وطنيه ، الوطن الاول الذى هاجر منه ، والوطن الثانى الذى لجأ اليه ، وسقط فى الميدان قرير العين، ومات ميتة الابطال فى حومة الوغى ، ولم يعش ليشاهد بعينيه انهيار صفوف أصدقائه البوير ، واضطرارهم الى قبول شروط الصلح التى فرضها عليهم الغزاة بعد معركة تويبوش، التى كانت للبوير نصرا ولكنه نصر بمثابة هزيمة . فقد استنفدت هذه المعركة قواهم ، فاضطروا الى القاء السلاح والرضوخ لاحكام القدر القاسية !

اما على موافى ، فقد دفن فى ساحة القتال التى سقط فيها ، وحياه رفاقه التحية الاخيرة مرددين صيحته المحبوبة : « الله اكبر ! والموت للظالمين ! »

عمر المصرى

يجد القارىء هنا قصتين فى قصة :
كيف كان الطربوش المغربى سببا لثورة
العربان فى مصر ، وكيف اقنعت سكينة
البدوية قومها بوجوب التمسك بالتقاليد
العربية الموروثة ..

قضى « بكر المنياوى » ليلته الاولى ، بعد خروجه من القاهرة المحروسة ، فى خان يؤمه العربان وتحط فيه القوافل رحالها ببلدة البدرشين ، فى ذهابها وأوبتها بين العاصمة المصرية ومدن الوجه القبلى . ونهض مبكرا فى صباح اليوم التالى لاستئناف السير الى المنيا . وكانت تصحبه فى تلك الرحلة زوجته المعروفة فى المدن والاقاليم باسم « سكينة البدوية » البارعة فى معالجة الجراح بما تستخرجه من خواص الاعشاب والازهار ..

وكان « بكر المنياوى » اعرابيا من قبيلة « الجوازى » الضاربة فى اقليمى المنيا والفيوم ، المشهورة بالفروسية وتربية الخيول الاصيلة ، وتوريد الجمال والماشية لاهل المدن على طول مجرى النيل . وكانت مهنة « بكر » التوسط بين الموردين والمستوردين ، مما جعله كثير الاسفار دائم التنقل من مكان الى مكان .. وأما « سكينة » فاعرابية مثله ، تنتمى الى احد بطون « اولادعلى » الكثيرة ، فى الصحراء الغربية . وقد تزوجها « بكر » فى احدى رحلاته الى برقة ، ووجد فيها خير رفيق فى حياته ، وخير معين فى عمله

لم يدر حديث الزوجين فى ذلك اليوم ، وهما عائدان من القاهرة وقد استوى كل منهما على ظهر ناقته ، حول رحلة جديدة يفكران فيها ، او صفقة رابحة يسعيان اليها . بل كان حديثهما فى هذه المرة منصبا على موضوع لم يطرقاه من قبل ، وعلى امر خطير يتوقف عليه مصير قومهما ومستقبل أسرتهما ..

قال بكر بصوت عميق متهدج :

ـ اننى اوجس خيفة يا سكينة ... أوجس خيفة من
اقب هذه المغامرة التى أرى قومنا مسوقين اليها بدافع
ن الاقدار .. ومما يدعو الى الاسف ، ان الحكام فى القاهرة
يأخذوا بعين الاعتبار مبلغ تأصل التقاليد فى نفوس
مربان ، ومقدار تمسكهم بما توارثوه من عادات وشمائل
ا عن جد من قديم الزمان !

فأقرته « سكينة » على رأيه . واضافت قائلة :

ـ علينا ان ننبه القوم الى ما يدبر لهم ، وان نطلعهم على
ا سمعنا ورأينا فى القاهرة . وعليهم أن يعدوا للمفاجآت
دتها ، وان يتخذوا للغد حيطته .. !

ماذا سمع الزوجان ، وماذا رأيا فى القاهرة ؟

□

كان الحكم قد آل الى محمد سعيد ، اصغر ابناء محمد على ، منذ سنة ١٨٥٤ . وكان الوالى الجديد بخلاف سلفه وابن أخيه « عباس الاول » ، يرغب فى اعادة مجد الجيش المصرى الى سالف عهده ، وتنظيمه على أسس وقواعد تتفق مع مقتضيات العصر

كان الجيش المصرى قد تطرق اليه الانحلال والضعف فى السنوات السابقة ، فعمد محمد سعيد الى زيادة عدده ، وفكر فى استخدام القبائل العربية الضاربة فى مصر أقاليم مصر وعلى الحدود ، وكانت قبيلة الجوازى النازلة فى اقليمى المنيا والفيوم ، اول قبيلة اتجهت اليها انظار الوالى لتحقيق هذا الغرض . فدارت بينه وبين زعيمها « عمر المصرى » ـ او « عمار المصرى » بلهجة ابناء البادية ـ مفاوضات تولاها فريق من ضباط الجيش الشراكسة والترك وتم الاتفاق بين الحكومة وشيوخ القبيلة على جميع شروط التعاون ما عدا شرطين اثنين : ان يكون التجنيد اختياريا

لا اجباريا ، وان يظل المجندون من رجال القبائل محتفظين بزيهم العربى ، وعلى الخصوص بطربوشهم المغربى ذى الزر الضخم الطويل !

ونشب الخلاف حول هذين الشرطين ، فوافق الوالى على الشرط الاول الخاص بطريقة التجنيد ، ولكنه رفض الشرط الثانى واصر على ان يرتدى العربان المجندون زى العساكر المصريين ، رغبة منه فى توحيد الزى وعدم التفريق بين العناصر التى يتألف منها الجيش الجديد ..

واصر « عمر المصرى » من ناحيته على ان يحتفظ بنو قومه بزيهم وطربوشهم ، وانقطعت المفاوضات بين الفريقين!

وكان الضباط الشراكسة والترك فى الجيش لاينظرون بعين الارتياح الى اهتمام الوالى بأمر العربان ورغبته فى ارضائهم ، وميله الى معاملتهم معاملة خاصة فراحوا يوغرون صدره على « عمر المصرى » وجماعته ، ويضغطون عليه ليقابل مطالبهم بالشدة والعنف . فنجحوا فى مساعيهم ، وقرر محمد سعيد تجريد حملة على عربان المنيا والفيوم لتأديبهم وارغامهم على الرضوخ لارادته بلا قيد ولا شرط !

وفكر الضباط انصار العنف والشدة فى استخدام فريق من العربان فى محاربة الفريق الآخر ، فأوفدوا الرسل الى قبائل « أولاد على » فى الصحراء الغربية ، ونجح اولئك الرسل فى اقناع بعض العشائر بالالتحاق بالحملة ومهاجمة « الجوازى » من الخلف ! وقامت الاستعدادات فى القاهرة لتشكيل القوة المحاربة وارسالها فى أقرب وقت الى الاقليمين العاصيين ..

□

هذا ما وصل الى علم « بكر المنياوى » وزوجته فى اثناء اقامتهما بالعاصمة ، وقد هالهما ان تعد العدة للبطش

بقبيلتهما وهى عن الخطة لاهية ، وان يلاقى المحرضون على القتال عونا من قبيلة عربية اخرى ، تربطها بقبيلة الجوازى روابط الجوار والرحم والقربى !

وعاد الزوجان مسرعين الى ديار قومهما ، لاطلاعهم على مابلغ مسامعهما ، ووقع عليه نظرهما ، ولانذارهم بوجوب التأهب لدرء الخطر الداهم !

تنادى العربان وتصارخوا الى القتال قبل ان تتحرك القوة الزاحفة عليهم من قواعدها بالقاهرة والجيزة . وهرع الى السلاح كل قادر على حمله من رجال « الجوازى » ونسائهم ، واستنجد القوم بالعشائر المجاورة فأنجدتهم بما تيسر لها من فرسان وهجانة وذخيرة وزاد وتولى قيادة الثائرين بطلهم المغوار وزعيمهم المحنك ، « عمر المصرى » الشهير بعمار . .

وفاجأت الحملة العسكرية جموع العربان فى طريق الواحات البحرية ، ودارت المناوشات بين الفريقين متقطعة متفرقة ، حتى اشتبكا اخيرا فى معركة عرفت بواقعة « بلاط » حيث اطبق الجيش على الثوار من كل صوب ، بعد ما وافته الى ذلك المكان القوة التى انجدته بها عشائر « أولاد على » ، فأخذ العربان بين نارين ، بل بين اربع نيران وبعد قتال دام بضع ساعات ، شعر «عمر المصرى» بأن الدائرة دائرة عليه ، وان رجاله لن يقووا على الصمود أمام جيش يفوقهم عددا وعدة وذخيرة ،وان استبسالهم فى القتال لن يجديهم نفعا . . ! وادرك الزعيم الشجاع ان الحظ يخونه ، وانه سيقضى عليه وعلى قومه ، فأوشك ان يصدر اليهم امره بالتراجع والانطلاق فى الصحراء الواسعة

وفجأة ، علت صرخة من احدى جهات الميدان ، واعقبها هرج ومرج ، واضطربت صفوف العساكر وارتفعت سحب

من الغبار جعلت تبتعد نحو الشمال ، وسمعت اصوات تصيح : « اولاد على ! اولاد على ! »
وانقلب القتال من حال الى حال !
ان الحرب أحيانا خدعة أكثر مما هى شجاعة واقدام . وقد عمد « الجوازى » فى تلك المعركة الى خدعة أنقذتهم من الهلاك ، وغيرت مجرى القتال فى حومته ونفذت تلك الخدعة على يد «بكر المنياوى» وزوجته « سكينة البدوية » ..
فقد هرعت المرأة الى بنى قومها « اولاد على » يصحبها زوجها ، وصاحت بهم : « متى كان العربان يقاتلون العربان ومتى كان البدوى يطعن اخاه البدوى فى ظهره ، بينما يتلقى طعنات المهاجمين بصدره ؟ ومتى كانت المصاهرة بين العشائر تؤدى الى خيانة الدم والخروج على التقاليد ؟ الا كفوا عن القتال يا ولد على ، فالدم الذى تهرقونه دمكم ، والمضارب التى تهدمون رواقها ، والبيوت التى تخلعون اطنابها ، مضاربكم وبيوتكم ! »
وواصلت المرأة انطلاقها بين الصفوف صائحة أيضا : « اننا نقاتل فى سبيل هذه البرانس التى تلتحفون بها ، وهذه الطرابيش التى تزينون بها رؤوسكم ! »
وتشاور شيوخ « أولاد على » فيما بينهم ، وقر رأيهم على الانسحاب من المعركة ، لانه لا يليق بهم أن يقاتلوا عربانا مثلهم ..
وفتح انسحابهم ثغرة فى جبهة الجيش ، فصدرت اليه الاوامر بالارتداد ، وظل « عمر المصرى » ورجاله اسياد الميدان فى تلك المعركة !
وارتفعت وسط الضجيج وقرقعة السلاح ، زغاريد البدويات الفرحات المهللات ، وكانت « سكينة » زوجة «بكر المنياوى » فى طليعة المزغردات !
ولكن فرحتها فى ذلك اليوم لم تتم على اكمل وجه

بل شاءت الاقدار ان تنغص على المرأة الباسلة تكبيرها وتهليلها : فقد سقط « بكر المنياوى » قتيلا فى حومة الوغى بطعنة فارس شركسى ، وعجزت زوجته الطبيبة المداوية عن انقاذ حياته ، بالرغم مما بذلته من عناية وتفننت فى ابتكاره من عقاقير ، فان مهارتها قد خانتها فى ذلك اليوم الذى كانت فيه أشد ما تكون حاجة اليها ، لكى تنتزع من مخالب الموت اعز انسان عليها فى الوجود ..

وبعد أن زغردت النساء للنصر ، انصرفن الى ندب القتلى ومواساة الجرحى . وبكت « سكينة البدوية » زوجها وعولت منذ تلك اللحظة على الرحيل عائدة الى قومها ..

وأبى « عمر المصرى » الا ان يشيد بفضل المرأة الباسلة على مرأى ومسمع من القوم ، فالتف شيوخ العشائر حوله ، ورفعوا سيوفهم لتحية البدوية التى كان العمل الذى اقدمت عليه عاملا من عوامل انتصارهم !

تلك قصة الطرابيش المغربية ذات الازرار الطويلة الضخمة ، وتلك قصة انسحاب عشائر « اولاد على » من معركة « بلاط » فى أوائل عهد محمد سعيد

وكان لهذه القصة المزدوجة حواش وذيول !

فقد رحل « عمر المصرى » عن ديار القبيلة بفريق من رجالها ونسائها ، ونزل فى الصحراء الغربية فى باطن برقة ، حيث صاهر العشائر الضاربة فى تلك الانحاء

والغريب فى رحيل ذلك الزعيم البدوى عن دياره ، ونزوحه عن موطنه ، انه لم ينزح بسبب انهزامه فى معركة ، بل بسبب انتصاره فيها ! فعمر المصرى من ارومة نجدية ، والتقاليد التى ورثها عن اجداده النجديين تقضى بأن يرحل الغالب عن البقاع التى كتبت له فيها الغلبة فى الحروب ! ولا تزال هذه العادة حية معمولا بها عند كثير من العشائر

العربية فى جزيرة العرب وسيناء والصحراء الغربيـــة والشمال الافريقى : وهذا ما فعله «عمر المصرى» بعدواقعة « بلاط » !

وبقى الرجل مقيما فى برقة الى سنة ١٨٦٣ . فقـد أوفدت الحكومة المصرية الرسل لاستدعائه ورفاقه ، فلبوا الدعوة وعادوا الى مصر ، حيث عهد اليهم بحراسة الحدود الغربية ، مع بقاء ماكانوا يتمسكون به من امتيازات ــ وفى مقدمتها الاحتفاظ بزيهم العربى ، وطربوشهم المغربى !

وكان عمر المصرى ــ الذى تولى من جديد زعامة قومه فى عهد اسماعيل ــ يقول فى كل مناسبة : « ما كنالصوصا، وما كنا أشرارا ، وما كنا باغين ! ولكن وسطاء السوء هم الذين سببوا الفتنة ، فى حين اننا كنا فى كل ظرف ووقت وحال سيوفا مرهفــة ، ورماحا مشرعة ، فى خدمة مصر واعلاء شأنها ! »

ولم يكن عمر المصرى ــ او عمار المصرى ــ مخطئا أو مبالغا فيما ذهب اليه : فقد مشى عربان مصر مع ابناءمدنها وقراها وحقولها جنبا الى جنب فى الحروب والغزوات ، وبذلوا مثلهم الدماء والارواح ، فى ربوع الشـــام وجبال لبنان ، وفى ربى نجدوصحارىالحجاز ، وفىهضاب فلسطين وســـهول السودان ، حيث تضم مقبرة واحدة فى بلدة « شندى »رفات نجل عمر المصرى ومئات آخرين من رفاته عربان الجوازى الذين سقطوا فى الميـــدان من أجل مصر ووحدة وادى النيل !

أما حادثة « بلاط » فانها لم تكن ثورة بالمعنى المقصود من هذه الكلمة ، كما وصفها بعض المؤرخين ، ولم يكن الغرض منها السلب والنهب والخروج على السلطةالشرعية فى البلاد كما ادعوا ، بل كانت مظهرا من مظاهر سياسة الدس والكيد ، العزيزة على النفوس فى ذلك الوقت !

فى الكنيسة المعلقة

رجل راح شهيد وفائه ، وامرأة
راحت شهيدة مروءتها : وفى الحالتين
تضحية جديرة بالاكبار والاعجاب

فى الملفات التى كانت محفوظة بمتحف «بونابرت» بالقاهرة ـ الذى انشأه العالم الفرنسى المرحوم « شارل جلياردو » وتفرقت محتوياته بعد موته ، فلم تحتفظ بها الحكومة المصرية ـ عثرت على المخطوط الذى اقدمه هنا . وهو مخطوط مؤلف من تسع وريقات مكتوبة بخط دقيق واضح سطر صاحب المتحف على هامش الوريقة الاولى منها انها « جزء من مذكرات الضابط الفرنسى ن . ن » وانها آلت اليه من أبيه الذى أخذها من الطبيب « كلوت بك » . والمخطوط يروى قصة ثلاثة من المصريين وجندى فرنسى فى عهد الجنرال « كليبر » ، وهى قصة جديرة بأن تنقل كما رواها كاتب المذكرات « ن . ن » بلا تعديل ولا تحوير ومع ان الكاتب لم يذكر تاريخ وقوع الحادث الذى رواه ، الا انه اشار الى حدوثه فى خلال ثورة القاهرة على الفرنسيين فى عهد « كليبر » ، وقد نشبت هذه الثورة فى النصف الثانى من شهر مارس سنة ١٨٠٠ وظلت مشتعلة حتى قمعها الفرنسيون فى منتصف ابريل ، اى بعد شهر تقريبا من نشوبها . فيكون الحادث الذى نحن بصدده قد وقع اذن فى الايام الاولى من شهر ابريل سنة ١٨٠٠ ، واليك ترجمة القصة كلها كما دونت فى الوريقات التسع ، ولا فضل لى فيها غير النقل الامين :

□

« لزمت قصر القائد العام بعد اصابتى بجرح منعنى من الاشتراك فى معركة « عين شمس » التى انتصرنا فيها على الجيش التركى انتصارا تاما . وان كنا لم ننعم بثمرة

انتصارنا ، اذ ثارت القاهرة علينــا فحاصرنا الثائرون فى الاماكن التى نقيم فيها ، واصبح حتما على الجنرال «كليبر» ـ وهو خارج العاصمة ـ ان يستولى عليهامن جديدويخمد الثورة ويقضى على القائمين بها ، وبدأ بعض معاونى القائد يتذمرون ويتهامسون قائلين ان السياسة التى سارعليها بعد عودة الجنرال « بونابرت » الى فرنسا ، افقدتنا ما كنا قد ربحناه من حب المصريين وتعاونهم معنا ، وان مصير الحملة أصبح الآن رهن الاقدار ، بسبب « كليبر » الذى لن يستطيع الاحتفاظ بالارث الذى تركه له « بونابرت »

□

« علمت من صديقى « فيليبير » ان المصريين الذين فى خدمة القائد العام بقصر الالفى متذمرون ايضا من المعاملة السيئة التى يجدونها منه ومن المقربين اليه . وقال لى « فيليبير » ايضا ان القائد العام طرد من القصر الحوذى « احمد المنبارى » والطباخ « شلبى يعقوب » واخته «اميرة» التى كانت تدير المغسل وغيرهم من الذين كان « بونابرت » يشملهم بعطفه . ذلك ان الحوذى رفسه حصان فكسر فخذه والطباخ هبت فى وجهه النار فأصيب بحروق بالغة . وبدلا من ان يكافئهما القائد ويأمر بالعناية بهما ، فانه طردهما من الخدمة . وآثرت الفتاة « أميرة » أن تصحب أخاها . ويؤكد « فيليبير » ان الثلاثة فتحوا دكانا صغيرا لبيع السلع والاطعمة البلدية فى مصر القديمة ، بالقرب من كنيسة العذراء التى يسميها الاقباط « الكنيسة المعلقة » لانهـا قائمة على ارتفاع كبير من مستوى الطريق . وقدزارهم « فيليبير » فى دكانهم لانه يميل الى الفتاة ويعرض عليها الزواج ولكنها ترده نافرة .. وسأزورهم ايضا مع صديقى عندما يعود الهدوء الى المدينة ، ولكن هل يعوداليها الهدوء

وهل نعرف من جديد تلك الراحة التى عرفناها مدة من الزمن فى عهد بونابرت ؟

▭

« ضرب الجيش بقيادة « كليبر » نفسه الحصار على القاهرة ، وبدأت فصائله تتسرب الى الاحياءالثائرةوتقتحم معاقل الثائرين الذين يبدون فى المقاومة عنادا يدهشعقولنا ويوجد بينهم بضعة آلاف من الترك مع قوادهم ، وبعض المماليك الذين شردهم « بونابرت » من قبل . وتطوفعلى الالسنة اسماء « عثمان كتخذا ومحمد الالفى وحسن الجداوى ومصطفى البشتيلى والسيد المحروقى » الذى يتولى تموين الثائرين . وظهر من جديد رجلسببللحملة كثيرا من المتاعب هو « عمر مكرم » ، ويقال ان هذاالرجل تمكن من اقناع زعماء الاقباط بأن يشتركوا معالمسلمين فى هذه الثورة ففعلوا ، ولم يبق منهم على ولائهللفرنسيين غير « المعلم يعقوب » الذى نسميه « جنرال » ويعقدزعماء الاقباط اجتماعاتهم فى بيت « المعلم جرجس الجوهرى » حيث يضعون الخطط المشتركةبينهم وبين«مكرموالمحروقى والبشتيلى » للقضاء على الحامية الفرنسية قبل ان تصل اليها الامداد من خارج العاصمة . اننا فى مركز لا نحسد عليه . ويهاجمنا الثائرون فى عقر دورنا . فالقصر نفسه لم يسلم من جرأتهم . وقد قتل كثيرونمنرجالناضربابالعصى فى الشوارع والازقة التى سد معظمها بالمتاريس . ويخيل الينا انه لم يبق لنا صديق فى هذه البلاد

▭

« قضينا عشرة ايام رهيبة . فمدفعيتنا تدك الاحياء بمقذوفاتها وتدمر البيوت علىرؤوسالمعتصمين بها . وقد

اشتد القتال على الخصوص فى بولاق ومصر القديمة والخرنفش وحول الازهر . ونحن نسترجع المدينة الثائرة حيا بعد حي وزقاقا بعد زقاق . ومن حسن حظنا ان الثائرين يفتقرون الى الاسلحة النارية فى حين انها متوفرة لدينا ولولاها لكان مصيرنا الهلاك او الفرار . وترد علينا كل يوم أخبار سارة عن تغلغل جنودنا فى الاحياء التى ترتكز فيها الثورة . وفى كل يوم تزداد ثقتنا بأننا سنخرج من هذه التجربة القاسية سالمين !

« تلقيت أمرا بالذهاب مع خمسين من رجالنا لنجدة فصيلة من الرماة عهد اليها باخماد الحركة فى «مصر القديمة» حيث الكنائس واطلال الاسوار والمقابر ، وقد انقطعت عنا اخبار هذه الفصيلة ويخشى ان تكون قد وقعت فى كمين

□

« لم يخطىء ظننا : فقد فاجأ الثوار فصيلة الرماة وكانت بقيادة فيليبير . وتشتت رجالها ، فقتل منهم من قتل ، وهرب الباقون وعادوا الينا . ولا يزال فيليبير مفقودا . وقال بعض الجنود انه جرح وان المصريين حملوه معهم واختفوا بين البيوت القديمة المتداعية . فاذا كان فيليبير وبعض رجاله قد وقعوا فى الاسر ، فلابد من انقاذهم !

□

« شهدت منظرا لن انساه ماحييت ! فقد سرت مع رجالى واخترقنا الطرقات الضيقة الملأى بالاوحال نحو المكان الذى فوجئت فيه الفصيلة فى « مصر القديمة » . وعلى مقربة من الكنيسة المعلقة ، رأينا جمعا من المصريين فاطلقنا عليهم النار وهاجمناهم بحراب البنادق واذا بهم يتسللون خلف الجدران ويختفون ماعدا خمسة منهم . ظلوا فى هرج

ومرج أمام باب دكان صغير ، فلما اقتربنا منهم رفعوا أيديهم مستسلمين . وهنا فوجئت بالصدمة التى لن انساها فقد رأيت صديقى « فيليبير » يخرج من الدكان ويصيح بنا من بعيد قائلا اننا قتلة مجرمون ، ثم يستل سيفه ويغمده فى صدره فيسقط على الارض والدم يسيل منه بغزارة ! وصعقنا لهذه المأساة . ولكننا عرفنا الحقيقة فيما بعد ، فأكبرنا عمل رفيقنا واكبرنا ايضا مسلك المصريين الثلاثة الذين طردهم الجنرال القائد العام من القصر . وهم الحوذى احمد المنبارى ، والطباخ شلبى يعقوب ، وأخته الفتاة أميرة !

« ويتلخص ما حدث فى أن الفصيلة التى قادها فيليبير وقعت فعلا فى كمين . فقتل سبعة من رجالها ، وفر الباقون وأصيب فيليبير بجرح فى جنبه . وشاءت المصادفات ان يقع ذلك الحادث بالقرب من دكان المصريين الثلاثة ، حيث كان شبان الحى يجتمعون . وعرف المنبارى وشلبى صديقهما فيليبير فحملاه الى الكنيسة المعلقة حيث كان الرهبان الاقباط يسعفون الجرحى ويواسونهم . وهناك لحقت به الفتاة أميرة وأحاطته بعنايتها ورعته بعطفها . وبعد ان ضمدت جرحه ، وطيبت خاطره ، ابقته فى حمى الرهبان بضعة أيام . حتى اذا ما استعاد قواه ، نقلته برفقة أخيها شلبى وصديقهما المنباوى الى اطراف الحى لاطلاق سراحه واعادة حريته اليه . وعندما وصل الاربعة امام الدكان ، وجدوا جماعة من الثائرين اوقفوهم برهة من الزمن ، وراح الجميع يتباحثون فى كيفية اعادة الجريح الى قومه بدون ان يصاب بأذى . وفى تلك الاثناء وصلنا ، فأطلقنا النار على الحشد واقتحمنا الزقاق بالحراب . واسفر هجومنا عن مصرع بعض المصريين ومن بينهم الاخ والاخت !.. فقد قتلنا الفتاة المسكينة أميرة واخاها شلبى ، فى الوقت الذى

كانا فيه يضعان خطة لانقاذ رفيقنا فيليبير !.. وقد صعد الدم الى رأس الشاب المسكين عندما رأى صديقيه يسقطان على الارض قتيلين فانتحر امامنا على تلك الصورة المفجعة!

□

« عدنا الى مراكزنا بعد هذه المأساة حاملين معنا جثة فيليبير المضرجة بالدم . وقبل ان نغادر مكان الحادثة ، أمرت رجالى بأن يقفوا صفا واحداً ويؤدوا التحية العسكرية للفتاة واخيها . ثم سرنا مع البقية الباقية من المصريين الى الكنيسة القريبة ، وقد خمدت فى صدورنا وفى صدورهم فورة الحقد امام رهبة الموت وجلاله . وطلبنا من الرهبان ان يصلوا على الجثث .. جثث فيليبير وشلبى واميرة ، ففعلوا ، وكان شبان الحى المسلمون يقفون خاشعين ، وقد اختلطوا برفاقهم الاقباط ، أما نحن فكان موقفنا اشبه بموقف المتهم امام محكمة العدالة . وياله من موقف رهيب! فان صدرى ينقبض من شدة التأثر ، وأنا ادون هذه الحادثة بعد وقوعها ، واتخيل امام ناظرى جثة تلك الفتاة التى احبها فيليبير ، والتى فرقت بينه وبينها الظروف فلحق بها الى الآخرة . ولا تزال ترن فى أذنى انغام الاناشيد الحزينة التى كان الرهبان يرتلونها امام هيكل العذراء فى الكنيسة المعلقة ، وهم يرفعون أيديهم ليباركوا الجثث الثلاث ! »

□

هذا مادونه الضابط « ن . ن » فى مذكراته عن مصرع زميله « فيليبير » ، وطباخ الجنرال « كليبر » الفرنسى ، و« شلبى يعقوب » واخته « أميرة » المصرية الثائرة . نقلته بالحرف الواحد بلا زيادة ولا نقصان !

مصر الظافرة

هتف الزعيم : « نصر من الله وفتح قريب ! » فكان له النصر والفتح !

اطلق الفرسان الاربعة لخيلهم العنان ، ثم اخذوا يحثونها بالمهاميز ، فتندفع بهم كالسهام المارقة تشق عباب الصحراء

وظل الرفاق الاربعة صامتين واجمين ، لا يتبادلون الحديث الا نتفا متقطعة ، كلما وقفوا للراحة او لتناول القليل من الطعام وترك جيادهم فى خلال ذلك ترعى الاعشاب النادرة فى تلك القفار الجرداء

كان « مصطفى علوان » قائد هذه الجماعة . وهو عملاق فى نحو الخمسين من العمر . جهورى الصوت سريع التأثر يتلقى رفاقه كل كلمة من كلماته امرا مطاعا . وكان من اكبر تجار الخيل فى مصر ، وفارسا لا يشق له غبار ، حتى لقد عرف بين فرسان المماليك المشهورين باسم «مصطفى الخيال » ثم غلب عليه هذا اللقب واشتهر به بين الجميع

اما رفيقه الثانى فهو اخوه عبد الله . واما الفارسان الآخران فكانا من الجنس اللطيف !

واولاهما ، هى : « زينب » زوجة مصطفى . وقد التقطها الرجل يتيمة فى شوارع القاهرة : فأخذها الى بيته ثم تزوجها فجلبت معها اليه الخير والرزق ، مما جعله يسميها « بركة » فاحتفظت بهذا الاسم نزولا على رغبته

واما الاخرى ، ففتاة يانعة ، فى الخامسة عشرة هى «وحيدة» ابنة عبد الله . ماتت امها وهى طفلة لم تتجاوز الثالثة بعد فاحتضنتها زوجة عمها « بركة » التى لم ترزق ابناء وعاشت الاسرة المكونة من الرجلين والمرأة والابنة الوحيدة على أتم ما يكون من وفاق ومحبة واخلاص

كان مصطفى الخيال يطوف بلاد العرب ومضارب البادية

باحثا عن الخيول المطهمة والافراس الاصيلة ، فيسوقها الى القاهرة حيث يختار منها المماليك اجودها ، ويتاجر مصطفى بما بقي منها فى أسواق مصر أو فى عواصم الامارات والممالك العربية المجاورة ، فذاعت شهرته ، وأحبه الناس لامانته فى المعاملة ، ونال الحظوة فى قصور الملوك والامراء والقواد ، من وادى النيل الى ضفاف بردى ودجلة والفرات

وكان يصطحب معه فى رحلاته أفراد أسرته الثلاثة ، وكانت المرأة والفتاة تتحملان متاعب السفر بشجاعة وجلد عظيمين ، فعرفتا الحواضر والبوادى والجبال ، وفاقتا فى فنون الفروسية كثيرين من الرجال

وعلى شاطىء الفرات ، علمت أسرة الخيال بما أحرزته جيوش المغول بقيادة هولاكو من انتصارات ساحقة جارفة وهى فى طريقها من الشرق ، متدفقة على فارس والعراقين فعزم المصريون الاربعة على العودة الى بلادهم ، مارين بدمشق الشام ، لايقاظ الغافلين ، وابلاغ حقيقة ذلك الخطر القادم الى مسامع الذين يجهلونه أو لا يأبهون به

□

وصل مصطفى الخيال ورفاقه الثلاثة الى « الغوطة » فاستراحوا بضع ساعات ، وتركوا لجيادهم الوقت الكافى لاستعادة قواها ، ثم توجهوا الى قصر « الناصر يوسف » صاحب دمشق ، الذى رحب بمصطفى وشكره على المهر الذى ابتاعه منه فى العام السابق ، قائلا :

ــ أنه أحسن جياد هذا البلد يا مصطفى . وقد أطلقت عليه اسم « محروس » عملا برأيك . فهل « محروسة » أمه معكم اليوم ؟

فأجاب مصطفى :

ــ نعم يا مولاى . ان « محروسة » هى الفرس الأصيل

التى لا يحلو لزوجتى بركة ركوب غيرها . ونحن الآن فى طريقنا الى مصر . واخشى لو واجهناالمهر بأمه ، أن يتعذر عليكم ترويضه فيما بعد . فأنت تذكر كيف أن ذلك المهر كان شديد التعلق بأمه ، وأنكم قضيتم شهورا عاجزين عن ترويضه واعتلاء متنه . ولكن دعنا من المهر والفرس ، فما عرجت على قصرك اليوم للتجارة ، بل للانذار !

وقص مصطفى الخيال على الناصر ما علمه ورآه فى رحلته من أمر أولئك المغول القادمين من الشرق بقوة هائلة وعدد لا يحصى . وكان الناصر قد علم الشىء الكثير من اخبارهم فتضاعفت مخاوفه ، وعرض على تاجر الخيول المصرى أن يبعث معه الى مصر رسولا لتحية صاحبها « سيف الدين قطز » والاستنجاد به والتحالفمعه على صد الغزاة الوافدين . فقبل مصطفى الخيال واستأنف السير فى اليوم التالى ، ومعه رفاقه الثلاثة ورسول الناصر الى قطز ، وانطلق الجميع يقطعون المفاوز وينهبون الارض نهبا ، الى القاهرة محط الرحال ومعقد الآمال ، القاهرة المحروسةالتى سمت « بركة » فرسها باسمها تيمنا ومجلبة للخير !

ضربت الفوضى أطنابها فى مصر بعد مأساة شجرة الدر ، وعندما وثب المغول وثبتهم من مجاهل آسيا ، كان الملك فى وادى النيل قد آل الى نور الدين على ، ابن المعز أيبك ، وهو صبى لاحول له ولا طول ، وقد لقب «بالملك المنصور» فكان اللقب اسما على غير مسمى ، وقام بنيابة السلطنة الأمير سيف الدين قطز من المماليك البحرية ، وأدرك ذلك الرجل المقدام أن المملكة لن تصمد فى وجه الغزاة الا اذا قبض قابض فيها على السلطة بيد من حديد ، فراح يفكر فى الأمر ويرسم الخطط لبلوغ هذا الغرض

وكانت الحودث تتلاحق مخيفة هائلة : فقد تدفق أربعمائة ألف مغولي على العراقين بقيادة هولاكو ، الذى تنبأت له احدى العرافات بأن جيشه لن يغلب ما دام هو قائما على رأسه وفى شهر صفر عام ٦٥٦ الموافق لشهر فبراير عام ١٢٥٨ للميلاد ، وثب المغول على بغداد فاقتحموا أسوارها ، ونهبوا وسلبوا سبعة أيام كاملة ، واعتقلوا المستعصم بالله العباسى فأخذوه أسيرا مع أبنائه ، ثم قتلوه فكان آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد

وكان هولاكو فى الواحدة والأربعين من العمر . فسكر بنشوة ذلك الفوز العظيم ، وواصل الزحف غربا ، فعبر الفرات وصبغ ماءه بالدم كما فعل من قبل بدجلة ، وفرق جيشه اللجب فى كل ناحية وصوب ، واضعا نصب عينيه الاستيلاء على سوريا سهلا وجبلا ، وكان أول أهدافه دخول حلب ، وثانيها دخول دمشق ، وثالثها الانطلاق نحو مصر وقاعدتها المحروسة !

وصف مصطفى الخيال لسيف الدين الحالة كما عرفها ، وانبأه بأن الناس فى الأقاليم السورية خائفون قلقون ، وان امراء تلك الأقاليم لن يقووا على صد الغزاة أو الوقوف فى طريقهم غير بضعة أسابيع ، بالنظر الى ما هم عليه من ضعف وتخاذل وشقاق

وبسط رسول الناصر الحالة فى دمشق ، وأبلغ سيف الدين رغبة الرجل فى العمل يدا واحدة معه ، واستنجاده به لانقاذ سوريا من الفتح المغولى ، لأنها الدرع التى تحمى مصر من ذلك الفتح وتعد خط الدفاع الأول عن وادى النيل

وعول سيف الدين ، بعد سماعه تلك التفاصيل ، على العمل بلا ابطاء فاتخذ لساعته قرارا ، وعمد الى تنفيذه من جميع وجوهه

قال لرسول الناصر :

ـ عد ياأخى الى من ارسلك وقل له : لبيك ! أن سيف الدين قادم اليك بنجدة سيكتب لها الفوز باذن الله فليجرد قواته للحرب ، واذا خذل فى الميادين فاننا سنثأر له ، ونأخذ من الآن على نفسنا عهدا بأن نستخلص الشام من ربقة المغول ، كما أننا سننقذ مصر من حكمهم ! اذهب ، رافقتك السلامة !

ثم التفت سيف الدين الى مصطفى الخيال ، وكان أفراد أسرته الثلاثة يحيطون به ، وقال له :

ـ وانت يا مصطفى ، أسرع الى سيناء واستنفر القبائل هناك للقتال . فاننا سنزحف قريبا لملاقاة العدو ، فتنضم أنت وأسرتك ومن ينضوى تحت لوائكم الينا فى ذلك الزحف

وخاطب المرأة قائلا :

ـ أن اعتمادنا على النساء لا يقل عن اعتمادنا على الرجال يا بركة ! فمتى اصبح الحمى فى خطر ، وجب على المرأة أن تثبت أنها أخت الرجل ! فسيروا على بركة الله يا بركة !

فانحنت زوجة الخيال ، وقالت :

ـ سوف ترى النساء فى الميادين يسابقن الرجال فى سبيل مصر !

فرفع سيف الدين ذراعه الى السماء متضرعا هاتفا :

ـ الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب !

وردد أفراد أسرة الخيال ، ومن حضر ذلك المجلس حول الأمير الشجاع :

ـ الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب !

□

ضرب سيف الدين قطز ضربته الأولى فى الداخل ، لينصرف بكليته فيما بعد الى مهمة الدفاع عن مضر ورد الخطر عنها من الخارج

ففى صبيحة يوم من ايام ذى القعدة سنة ٦٥٧ ، الموافقة لسنة ١٢٥٩ للميلاد ، دعا الأمير النائب عن الملك رجال الحاشية وقواد الجيش الى جلسة خطيرة ، ووقف فيهم خطيبا فقال :

ـ لقد فكرت طويلا ايها الرفاق ، قبل الاقدام على العمل الذى أقدمت عليه أمس . والمصلحة التى وضعتها نصب عينى هى مصلحة مصر وحدها ، مصر التى يجب انقاذها من الغزو وضمان حريتها وعزها ومجدها . لقد استأثرت بالسلطة لنفسى ، ولكننى لا أريد الملك . وجل ما ابتغيه : أن تسيروا معي لملاقاة العدو وصده عن مصر فلا يدنس الغزاة أرضها بأقدامهم . ولكم بعد ذلك أن تختاروا الملك الذى تريدون ، فأما أن تخرجوا الملك المنصور نور الدين وأهله من القلعة حيث احتجزتهم ، وأما أن تنادوا بأحد الأمراء أو القواد ملكا عليكم . فالمشيئة مشيئتكم أولا وآخرا وانما الذى أدعوكم اليه الآن ، هو توحيد الكلمة وجمع الصفوف أمام الخطر الداهم . لنقسم فى هذه اللحظة ، أننا سننبذ الحزبية والنعرات الشخصية ، وندفن أحقادنا ، فلا نتطاحن : ولا نتناحر ، ولا نتنافس ، ولا يكيد بعضنا البعض ولا يحفظ أحد منا موجدة على أحد . بل نوجه قوانا بأجمعها الى محاربة العدو القادم ، لانقاذ وطننا . ففى اتحادنا خلاصه وفى تفرقنا هلاكه . فأى المصيرين تختارون ؟

فصاح الجميع بصوت واحد :

ـ الاتحاد والخلاص !

وهكذا بايعوا سيف الدين قطز بالسلطة ، ولقبوه مقدما بالملك المظفر ، وأقسموا أن يتبعوه الى القتال ، فأما حياة عزيزة فى بلد حر ، وأما ميتة كريمة فى ظلال السيوف !

وهتف سيف الدين وردد الحاضرون هتافه :

« نصر من الله لمصر وفتح قريب ! »

سقطت حلب فى قبضة المغول . وتبعتها دمشق وغيرها من المعاقل والحصون . وما انتهت سنة ٦٥٨ هجرية ، حتى كان هولاكو قد أخضع بلاد الشام ، وبلغ غزة هاشم على ساحل فلسطين : وتأهب لاجتيازالصحراء قاصدا الى مصر ، مطمح الانظار وخاتمة الأهداف

وأوفد الفاتح المتعجرف المنتصر رسله الى سيف الدين الملك المظفر ، يدعونه للتسليم والخضوع ، ويهددونه بالخراب والدمار ، وبتحويل النيل الى نهر من الدماء أن هو عمدالى التمرد والمقاومة

فأمر الملك المظفر بقتل الرسل ، وعلق رؤوسهم على باب زويلة بالقاهرة ، وترك منهم واحدا على قيد الحياة ، ليحمل الى سيده خبر ذلك المصير !

ونفخ النافخون بالأبواق ، ونادى المنادون داعين الناس الى السلاح ، فأقبل الكبار والصغار على التجنيد اقبالا لم يسبق لمصر أن رأت مثله فى تاريخها الطويل ، وتناقلت الألسنة أقوال سيف الدين بأن القوى لا يفهم لغة غير لغة القوة ، وأن الحديد لا يفله غير الحديد ، وأن الراغب فى الحرية عليه أن يأخذها عنوة لا أن يستجديها استجداء !

واحتشد فى مصر جيش ملأ الحواضر والحقول ، والتحق بذلك الجيش آلاف من الوافدين على مصر من بلاد الشام حيث أبوا حياة ذليلة وخنوعا للفاتحين ، فهرعوا الى مصر يحدوهم الأمل فى انقاذ وطنهم والعودة اليه معززين مكرمين !

وزحف سيف الدين قطز على رأس ذلك الجيش الذى تكاتف فيه المصريون وجيرانهم ، وكان هتافهم يصم الآذان « الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب ! »

□

والتحقت بالجيش الزاحف فى سيناء كواكب الفرسان

متسابقة من أطراف الصحراء ، وكان يقودها مصطفى الخيال واخوه ، وكانت بركة ووحيدة تقودان كوكبتين من فارسات البادية ، وقد امتشقن السيوف وأطلقن حناجرهن بالأهازيج الحماسية

وكان المغول قد انتشروا فى كل مكان يحرقون ويدمرون ويسبون ، وقد اتخذوا مدينة غزة مركزا لهم ومقرا لقيادتهم . فكانت أول هدف وثب عليه المصريون وحلفاؤهم فانتزعوها من قبضة الغزاة الذين فوجئوا بتلك الضربة التى لم يتوقعوها ، فارتدوا الى الداخل ، وصدرت الأوامر الى فرقهم المبعثرة بالاحتشاد فى السهل المعروف بغور بيسان بفلسطين

وحدث فى أثناء زحف المصريين أن نشب خلاف بين أخوى هولاكو فى بلاد فارس ، فترك جيشه ، وعهد بقيادته الى أشد أعوانه مراسا ، ويدعى كتبوغا شارب الدماء ، ورجع ادراجه لاصلاح ذات البين فى أسرته

ولحق سيف الدين قطز بالمغول الى موضع احتشادهم ، فاصطدم الجيشان فى « بيت جالوت » وكان الجيش المصرى قد انقسم الى فريقين : فريق يقوده الملك المظفر ومهمته الهجوم على جيش كتبوغا ، وفريق يقوده بيبرس البندقدارى ومهمته مراقبة المعركة من ناحية الشرق ، وولوجها عند اللزوم

وهجم المصريون مهللين مكبرين : « الله اكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب ! »

وكان ذلك فى شهر رمضان عام ٦٥٨ للهجرة ، الموافق للشهر التاسع من عام ١٢٦٠ للميلاد . فاحتدم القتال وعلا الضجيج ، وكان فى مقدمة المغول ثلاثمائة رجل يقرعون الطبول ، فعلت عليها أصوات المقاتلين وقعقعة السلاح

وصهيل الخيول ، وتمايلت صفوف الأعداء من الصـدمة الأولى ، ثم تضعضعت ، ثم أرتد المغول الى الوراء واضطربت كتائبهم ، وفجأة ، ارتفعت صيحات منكرة فى ميمنة الجيش وبدأ فرسان المغول يلوون اعنة خيولهم نحو الشرق طالبين النجاة !

فماذا حدث ؟

حدث أن رأت بركة زوجة مصطفى الخيال ، وهى على رأس كوكبة الفارسات العربيات ، قائد المغول كتبوغا ممتطيا صهوة مهر أشهب عرفته هى وعرفته فرسها «محروسة!»

ذلك المهر هو « محروس » الذى كان من نصيب القائد المغولى يوم نهبت دمشق واستولى الفاتحون على مرابض الخيل فى قصر الناصر يوسف . فأطلقت بركة فرسها نحو القائد ، وعرف المهر أمه فصهل وانطلق من ناحيته الى الجهة التى كانت بركة وصويحباتها فيها ، تحيط بهن شرذمة من فرسان مصر !

حمل المهر فارسه المغولى الى وسط تلك الحلقة بالرغم منه ، فقد جلبت الفرس ابنها اليها ، وجلب المهر معه قائد المغول الى حيث ينتظره الهلاك !

وثب المصريون على كتبوغا يرومون اسره ، ولكنه دافع عن نفسه فأصيب بضربة سيف القته عن صهوة المهـر مجندلا على التراب ، وما رأى المغول قائدهم صريعا يتخبط فى دمه ، حتى تولاهم اليأس ودب الى قلوبهم الذعر ، ففروا من الميدان نحو الشرق لا يلوون على شيء !

وتلقفتهم سيوف الفرسان المرتقبين مع بيبرس البندقدارى ففتكت بهم ، فتكا ذريعا ، وانتشرت فلولهم فى الهضاب والبطاح ، وأصدر سيف الدين أمره الى فرسان البادية وفارساتها بمطاردة الهاربين والقضاء على كل من بقى منهم وارتفعت الهتافات من الصدور :

ـ الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب !

□

كان هولاكو قد أخضع الممـالك والأمارات فى فارس والعراقين وسوريا ، وقوض أركان الخلافة فى بغداد ، وقتل الخليفة ، ودوخ الروم والعرب ، ولم يبق له غير بسط سلطانه على مصر ليشمل ملكه الشرق الأدنى بأسره لكن معركة بيت جالوت قلبت ذلك الوضع رأسا على عقب وحولت النصر الى هزيمة منكرة ، فلم يجد هولاكو عزاء غير الادعاء بأن جيشه لم يهزم الا لأنه لم يكن هو على رأسه وان المنجمة لم تكذب عندما قالت أن المغول لن يقهروا ما دام يقودهم هولاكو !

وواصل سيف الدين قطز زحفه الى الامام فاستخلص أرض الشام بأسرها ، وأعاد اليها الطمأنينة والامان . وبدأت أوصال الأمبراطورية المغولية العظمى تتفكك شيئا فشيئا وأطرافها تنكمش ، وعاد الملك المظفر على رأس جيشه الى وادى النيل ، بعد أن أنقـذ الشرق من الغزاة الاغـراب الفاتحين ، فاستقبل الشعب المصرى أبناءه البواسل بالترحيب والهتاف ، وأدرك معنى الوحدة والتكاتف والتساند ، وظل النيل المبارك يجرى هادئا بين ضفتيه الخضراوين ، وقد اطمأن الناس ، وغاب عن مصر شبح الغزو ، وتجاوبت فى المدن والقرى والمزارع والحقول تلك الادعية التى مشى المصريون على انغامها الى القتال فالفوز ، والتى انطلقت من أفواه الشيوخ والاطفال ، والرجال والنساء على السواء :

ـ الله أكبر ! نصر من الله لمصر وفتح قريب !

نساء القاهرة

كل جهاد يشترك فيه الرجال عمل
رائع ، ولكن اروع منه جهاد تمشى فيه
النساء جنبا الى جنب مع الرجال

التقى الجيش العثمانى الزاحف من الشمال ، والجيش المصرى القادم من الجنوب ، بالقرب من مدينة حلب ، فى السهل المعروف بمرج دابق . وقاتل المماليك بقيادة سلطان مصر الشيخ الصنديد « قانصوه الغورى » قتال النمور الضارية والاسود الهائجة . وارتجت الارض من ضرب حوافر الخيل ضرب المطارق على السندان . وتسابق الابطال للقاء المنية فى حومة الوغى ، تجنبا لعار الهزيمة امام الجحافل العثمانية المتدفقة على السهل كالسيل الجارف. وتكدست اشلاء القتلى والجرحى فى فيض من الدماء . وقذفت مدافع السلطان « سليم خان » الاول الحمم من فوهاتها ، وكان ذلك اول عهد المماليك بهذا السلاح الفتاك، فقد كانوا يستخفون به ويأنفون من استخدامه ، لانه يتنافى مع الفروسية الحقة ، ويحول دون لقاء الفرسان وجها لوجه وصدرا لصدر فى غمرة الميدان !

ودارت الدائرة فى النهاية على جيش المماليك ، فتراجع الاحياء منهم عازمين على جمع شملهم من جديد عند حدود مصر . وقتل الملك الاشرف قانصوه الغورى فى المعركة . وكان ذلك فى سنة ١٥١٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٢١ هـ

ودخلت سوريا فى حوزة السلطان العثمانى .. وواصل الفاتح المحظوظ زحفه جنوبا ، ووجهته سيناء ، وارض وادى النيل

□

وصلت انباء الكارثة التى حلت بالجيش فى « مرج دابق » الى القاهرة ، فعم الحزن ولكنه لم يبلغ مبلغ اليأس.

جالد امراء المماليك انفسنهم ، والتفوا حول « طومان باى » ابن اخى السلطان الغورى ، الذى كان قد استخلفه قبل رحيله وعينه نائبا على المملكة ، فبايعوه باسم «الملك الاشرف» أيضا والقوا اليه مقاليد الامور ، واقسموا له يمين الطاعة، وألحوا عليه بأن يقودهم الى قتال الغزاة

وتريث « طومان باى » فى بادىء الامر ، وجعل يستطلع اخبار عدوه ويرقب حركاته وسكناته . ولم يطل انتظاره، فقد وفد على القاهرة ذات يوم رسل السلطان يعرضون على الملك الاشرف معاهدة صلح ، يعترف فيها بسيادة سليم الاول ، والدعوة له على المنابر ، وبضرب عملة باسمه. فكان رد طومان باى : « قولوا لمولاكم ان السيف خير حكم بينى وبينه ! »

وقرر فى الحال ان يزحف لملاقاة الجيش العثمانى ، بدل أن ينتظر قدومه فى عاصمة ملكه

وكانت جلسة مشهودة تلك التى دعا اليها « طومان باى » قواد جيشه ، الامراء والفرسان ، واعيان البلاد وحكام الاقاليم ، ليأخذ موافقتهم على ما أقدم عليه من رفض شروط الصلح المعيب . . فقد لبى الجميع الدعوة . واوفدت المدن المصرية واحياء العاصمة، وطوائف الشعب المختلفة ، مندوبين عنها لاعلان تأييدها للملك الاشرف ، واستعدادها للبذل والتضحية فى سبيل حرية البلاد وصيانة كيانها . فقد كان المماليك طغاة فى حكمهم ، وكثيرا ما كان الشعب يئن من ظلمهم ، ولكنهم كانوا يذودون عن استقلال مصر ، ويتحلون بالشجاعة والبطولة ويعنون بأعمال التعمير والانشاء ، ويشيدون المساجد والمعاهد فكان الشعب يكرههم ويحبهم فى آن معا . ولهذا مشى معهم لصد الغزاة العثمانيين فى عهد الغورى وطومان باى ، كما مشى معهم من قبل لصد الغزاة الصليبيين والمغول والتتر

طاف المنادون فى كل مكان يدعون الناس الى حمل السلاح، لافرق بين سيد وخادم ، وبين حر ورقيق . فان طومان باى أصدر قرارا بأن يعتق العبيد جميعا ليصبحوا احرارا فى بلدهم على شرط ان يقاتلوا فى سبيل حريته . وفتحت مستودعات الاسلحة فوزعت على الناس جميع الادوات الصالحة للضرب والقتل ...

وتمت للملك الاشرف تعبئة الجيش والشعب معا. وعزم على مغادرة القاهرة مع قوة من اربعين الف مقاتل ، على أن تلحق به النجدات فيما بعد ، وان يتولى الفتيـــان ابناء المماليك تحصين القاهرة وتموينها ، استعدادا لايام سود ، اذا قدر الله ان يفلت النصر من اليد ، وتواجه المدينة هجوما او حصارا ...

وفى فجر اليوم المحدد للزحف ، صحا « طومان باى » على أصوات جلبة وضوضاء فى القصر : انها اصوات نساء ، وجلبة وضوضاء تتخللهما الاهازيج والزغاريد !

انه رهط ، بل فوج ، بل جيش من النساء ، يقتحمن القصر صارخات هاتفات ، تتقدمهن امرأة فارعة القامـة مفتولة العضلات جهورية الصوت ، تتأبط ذراع فتاة شديدة الشبه بها ، تشهر بيمينها سيفا مسلولا ، وتحمل بيدها جرابا من الجلد الاحمر المموه بالرسوم ...

وكان حراس القصر يسيرون مع النساء مختلطين بهن ، وقد علا وجوههم البشر ، وراحوا مثلهن يهتفون ويهزجون

وما وقع نظر طومان باى على ذلك المشهد ، حتى انطلق من بين شفتيه اسم ، تلاه اسم آخر : « شريفة ؟ . . سليمة ؟ »

□

من هى «شريفة» ومن هى «سليمة» ؟

الاولى هى المرأة الفارعة القامة ، المفتولة العضـلات ،

الجهورية الصوت ، والثانية هى الفتاة شــــاهرة السيف وحاملة الجراب ...

كانت «شريفة» تعيش مع زوجها «الشيخ حسن الصافى» من عربان البحيرة ، ومن تجار الاغنام ومروضى الخيول ولم يكن للزوجين غير ابنة وحيدة ، أوشك مجيئهــا الى العالم ان يودى بحياة امها فسميت «سليمة» وكان الشيخ البدوى يملك ثروة طائلة . فغرر به واحد من امراء المماليك يدعى « خير بك » وشاركه فى صفقة تجارية سرق فيها اموال شريكه ، ولمــا حاول الشيخ المغبون ان يطالب بحقه، ويسترجع ماله ، ارسل اليه خير بك عصابة من زبانيتــه فقتلوه واستولوا على البقية الباقية من خيوله ومواشيه..

وكان « خير بك » فى عهد « قانصوه الغورى » قد عين حاكما لمدينة حلب ، وقلب لولى نعمته ظهر المجن فخانه وانضم الى عدوه السلطان العثمانى ، مع خائن آخر يدعى « الغزالى بك » .. ولولا خيانة الرجلين لاستطاع «الغورى» ان يحرز النصر فى « مرج دابق » ، أو ـ على الاقل ـ ان يوقف زحف العثمانيين على مصر ...

وفى الوقت الذى كان فيه قانصوه الغورى مهموم البال منهمكا فى اعداد العدة لمواجهة الخطر الداهم ، لجأت اليه «شريفة» ارملة حسن الصافى ، وابنتها سليمة ، بعد ماحل بهما الخراب وامتدت ايدى القتلة الى الشيخ البــــدوى وانتزعت حياته . ولم يكون فى وسع قانصوه الغورى أن يثأر للمراة وابنتها ، أو ان يسترجع لهما مافقدتاه، فالسارق بعيد عن مصر ، وخارج على طاعة سيده ، والقتلة الجنــاة قد اختفوا وفروا هاربين الى من حرضهم على القتل . . فاستضاف السلطان الغورى زوجة الشيخ القتيل وابنته، وانزلهما فى قصره ، واوصى ابن اخيه بهما ، فعهد اليهما « طومان باى » بادارة شئون القصر ، والاشراف على جناح

الحريم فيه . وكانتا جديرتين بالثقة ، حافظتين للمعروف، متفانيتين فى خدمة الرجلين اللذين احسنا اليهما : الملك الاشرف قانصوه الغورى ، وابن أخيه الملك الاشرف طومان باى

ولما أدلهم الخطب واحاطت بمصر المخاطر ، نادت « شريفة » وابنتها « سليمة » نساء القصر ، وأهابتا بهن قائلنين : « على النساء أن يرتفعن فى هذه المحنة الى مصاف الرجال ، واذا كان الآباء والأزواج والأبناء قد انتضوا السلاح ومشوا الى الميادين ، فعلينا نحن أيضا ــ نحن الامهات والزوجات والاخوات ــ ان نلحق بهم ، او نشد أزرهم ، أو نحمى ظهورهم ! »

ولقى هذا النداء آذانا صاغية ، فتشاورت النساء فيما بينهن ، واوفدن رسولات الى احياء العاصمة ومدن الاقاليم، وما جاء ذلك الجمع منهن الى قصر الملك الاشرف ، ومادوت تلك الاصوات بالهتاف والتهليل ، وما انطلقت الاهازيج من فم شريفة ، وما رفعت سليمة بيمينها سيفا وحملت بيسارها جرابا من الجلد الاحمر ، الا لابلاغ طومان باى ما قر عليه رأى النساء فى مملكته : مشاركة الرجال فى الدفاع عن الوطن ، والسير الى القتال معهم جنبا الى جنب !

وكان الجراب الاحمر فى يد سليمة مطويا على مفاجأة من نوع غير مألوف . فقد فتحته الفتاة ، وتناولت من داخله حبلا أسود اللون ، وقدمته الى السلطان الاشرف قائلة :

ــ أيها البطل الذاهب الى القتال على رأس جيش من الابطال ... ان شريفة زوجة حسن الصافى ، وابنتها سليمة، تهديانك باسم نساء القصر ،وباسم نساء مصر ، هذا العنان لفرسك ، مصحوبا بدعائنا لك بالنصر !

أخذ طومان باى الرسن من يد الفتاة ، وقد ارتسمت على وجهه امارات الغبطة الممزوجة بالدهشة :

فقد اغتبط لما اظهرته النساء من حمية ونخوةوشهامة ولكنه دهش لانه لم يدرك معنى الهدية الغريبة : عنان فرس مصنوع من خيوط دقيقة سوداء !

غير ان الدهشة لم تطل : فقد كشفت الام عن رأسها ، وكشفت الفتاة عن رأسها أيضا ، واذا بالرأسين لا شعر فيهما . . !

ان « شريفة » زوجة «حسن الصافى» قد جزت شعرها وجزت سليمة ايضا شعرها ، ومن تلك الشعور السوداء جدلت المرأتان عنانا لفرس الملك الاشرف !

□

أبت الاقدار الا ان يكون طومان باى سيء الحظ كعمه قانصوه الغورى ، فبالرغم من استبسال المماليك فى القتال، وبالرغم من النجدات التى زحفت اليهم من القاهرة ، لم يستطع أولئك الشجعان الميامين ان يوقفوا تدفق الجحافل الجرارة التى جاء بها سليم الاول لفتح مصر ، وجاء معها بعشرات من المدافع الضخمة ، والاسلحة النارية العديدة . فكثرة العدد ووفرة السلاح ، تضاف اليهما الخيانة التى دبت عقاربها فى صفوف الأمراء النفعيين المتزلفين ، كل ذلك قد تحالف على جيش المماليك ونجدات الأهالى ، فدارت الدائرة على طومان باى ، وسقط فى المعركة ، على مسافة من العاصمة ، خمسة وعشرون الفا من الفرسان المغاوير ، وفتحت طريق القاهرة أمام الغزاة الزاحفين . . .

وكان فتيان المماليك ، والشيوخ والصبيان ونساء العاصمة وفتيانها ،قد انصرفوا الى اقامة المتاريس ، وحفر الخنادق ، وغرس الأوتاد فى الطرقات ، وسد الحوارى والازقة ، وجمع الحجارة على سطوح المنازل ، وتكديس الاخشاب فى الميادين لاضرام النار فيها ، ولما وصلت فلول

الجيش المنهزم ، وانضمت الى السكان للدفاع عن المدينة، كانت القاهرة قد تحولت الى حصن منيع ، لايسهل لجيش مهما كان قويا الاستيلاء عليه بدون اراقة دماء غزيرة

وكانت معركة رائعة . وكان القتال مريرا استمر ثلاثة ايام بلياليها . فقد اضطر السلطان العثمانى ان يقف جيشه عند مشارف المدينة ، وأن يتقدم به خطوة خطوة ، ويهاجم العاصمة المصرية شارعا فشارعا ، وحارة فحارة ، وبيتا فبيتا وبابا فبابا . ولم تكن النساء أقل شجاعة من الرجال فى الدفاع عن حماهن . فان طوافهن فى المدينة وتحريضهن الناس على القتال ، ضاعف الحماسة فى النفوس . والزيت المغلى الذى كن يلقينه على الاعداء من نوافذ البيوت ، والحجارة التى كن يقذفنهم بها من فوق السطوح ، والادوات المنزلية التى كن يستعملنها سلاحا فى ايديهن الناعمة ، والاهازيج الحربية التى كن ينشدنها بأصواتهن العذبة ، كل ذلك انزل بالمهاجمين خسائر فادحة ، فبيعت الحرية بثمن غال ، مما جعل السلطان العثمانى بعد فتح مصر يقول : « ما رأيت بعد شعبا اشجع من هذا الشعب ، وما لقيت فى فتوحاتى مقاومة مثل هذه المقاومة ، وما ظننت يوما ان جيشى سيحارب ثلاثة أيام جيشا معظمه من النساء والاطفال ! »

خمسون الفا من سكان القاهرة سقطوا فى ساحة الشرف، فى تلك المعركة الهائلة ، نصفهم من النساء المحاربات . فقد ابت كل زوجة ، وكل أخت ، وكل ابنة ، ان يقدم ابوها او أخوها أو زوجها نفسه قربانا على هيكل الحرية ، وتظل هى قابعة فى عقر دارها وقد خلت الدار من ربها ! واذا كانت شجاعة النساء ، فضلا عن بطولة الرجال ، لم تنقذ القاهرة من المصير الذى ارادته لها الاقدار ، فقد كان سقوطها ، فى ذلك الجو من البطولة ، سقوطا مشرفا لا عار فيه ولا شنار !

فر طومان باى الى الصعيد مع فريق من فرسانه ،على أمل أن يعاود الكرة لانقاذ العاصمة . ولـكن الخيانة لحقته على الاثر ، فسلمه جماعة من انصاره الى عدوه . وبعدان قرر السلطان العثمانى ان يبقى على حياته اعترافا بما ابداه من شجاعة واقدام ، عاد فعدل عن رأيه ، وأمر بأن يشنق البطل : وكان المحرضان على هذا الانتقام البشع ، الخائنان خير بك والغزالى بك ، اللذان رافقا الفاتح فى زحفه ، لينالا منه المكافأة على خيانتهما

وفى الرابع والعشرين من شهر يناير سـنة ١٥١٧ ، الموافق للتاسع من شهر ربيع الاول سنة ٩٢٢ ، نفذ الامر الهمايونى ، وشـنق طومان باى تحت قنطرة باب زويلة بالقاهرة

وفى مساء ذلك اليوم ، حاولت جماعة من النساء النادبات خطف الجثة ، فقتلهن الجند ومثـل بهن : ولم تكن تلك النادبات غير شريفة زوجة حسن الصافى ، وابنتها سليمة ، وبعض نساء القصر ، وبينهن احدى زوجات الملك الاشرف . .

وفى اعلى قنطرة باب زويلة ، حلقة من الحديد فى شكل كلابة ، لا تزال فى مكانها الى الآن : تلك هى المشنقة التى علق فيها طومان باى بأمر من السلطان سليم خان الاول . وقد ظل الناس مدة من الزمن يسمونها : « حلقة طومان »

فاجعة فى مهرجان

كان عبدا رقيقا ، فانتزع حريتـــه
انتزاعا من بين مخالب الاسد !

شهدت مدينة الاسكندرية فى صيف ٢٧٥ قبل الميلاد مهرجانا فخما دام عشرين يوما . وامر « بطليموس الثانى » بأن توزع النقود والمؤن على الفقراء بلا حساب ؛ وان تبسط الموائد فى الشوارع والميادين كى يأكل الناس ويشربوا على انغام الموسيقى ، فقد أقيم ذلك المهرجان احتفالا بزواجه للمرة الثانية ، اذ كان قد غضب على زوجته الاولى — وكانت غريبة عن اسرته — فطلقها وارسلها الى المنفى ، ثم تزوج أخته التى عرفت فى التاريخ باسم « ارسينوى الثانية » وكان زواج الأخ بأخته من العادات المألوفة عند البطالسة وغيرهم فى ذلك العهد

أما بطليموس الثانى هذا فقد عرف باسم « فيلادلف » أى المحب لاخوته ، لانه قتل منهم اثنين عندما اعتلى عرش مصر !

وأرادت الملكة الجديدة ان تزيل من القصر كل أثر للزوجة السابقة ، فأبعدت عنه جميع الخدم والعبيد والجوارى والوصيفات ، وجاءت باشخاص تثق بهم وتطمئن اليهم ، حتى لقد طلب اليها زوجها ان تبقى فى خدمتها واحدة فقط من وصيفات زوجته الاولى فرفضت ، فأرسل بطليموس يستدعى تلك الفتاة لينظر فى أمرها ، اذ كان يعطف عليها عطفا خاصا ، لان اباها انقذه مرة من الغرق وراح ضحية شهامته ووفائه ...

كان اسمها « عمرة » . وهى ابنة رجل عربى من قحطان ، جاء به بطليموس من البلاد الواقعة شرق نهر الاردن ، حيث كان يشتغل بتجارة الخيول بين تلك البلاد وصحراء العرب ، وعهد اليه فى الاشراف على خيول القصر والحرس ، وتربيتها

وترويضها الى أن ماتت تاركا ابنته الوحيدة أمانة فى عنق الملك ، وكانت فى عنفوان الشباب ، بارعة الحسن ، سمراء اللون ، سوداء الشعر والعينين ، فتولى بطليموس امرها ، وجعلها أولى وصيفات زوجتــــه ، فكانت مثال الولاء والاخلاص ...

أطلعها بطليموس على قرار زوجته الثانية بابعادها عن القصر ، وقال انه سيبعث بها وديعة الى أية اسرة تختارها من أسر القواد والحكام ، فبكت وطلبت اليه أن يعيدها الى البلاد التى جاءت منها ، لكى تبحث عن أهلها وذويها،وتقضى حياتها بين ظهرانيهم حرة من كل ضغط وقيد

واجابها الملك الى رغبتها ...

▭

كانت عاصمة البلاد الواقعـــة عبر الاردن تدعى « ربة عمون » منذ اقامة العمونيين فيها وانشاء دولتهم فى تلك البقاع الوعرة . وقد خربها الملكداود،واجتاحهاالاشوريون، ودكت معالمها للمرة الثالثة فى الحروب التى نشبت بينخلفاء الاسكندر المقـــدونى بعد وفاته . وعندما قسم قــواد الفاتح العظيم ملكه الشاسع ، آلت بلاد الأردنالشرقية الى البطالسة الذين تبوأوا عرش مصر ، واتخذوا الاسكندرية عاصمة لملكهم ، وهكذا جلست على عرش مصر اسرة غريبة أخرى ، حكمت البلاد بضع مئات من السنين . وكانت الاسكندرية عروس حواضر الشرق ، تزهو بميادينهـــا وشوارعها ، وبالمنارة القائمة على صخرة « فاروس » عند مدخل الميناء ، تلك المنارة التى عدت فيما بعــد احــدى عجائب الدنيا السبع

ووجه بطليموس الثانى عناية خاصة الى « ربة عمون » فأعاد بناء اسوارها وقصورها على قمة الجبل ، ومعابدها وهياكلها فى الوديان ، والملعب الفسيح المنحوت فى سفحتل

صخرى ، ثم اطلق عليها اسمه ، فعرفت منذ ذلك الوقت باسم « فيلادلفيا »

وفى أثناء زيارته للمدينة الجديدة أهداه « سيور » أبو عمرة فرسين عربيين اصـــيلين ، فقبلهمـا بطليموس ، واصطحب معه الرجل وابنته الى الاسكندرية فأقاما فيها الى أن كان ما كان ..

وعندما طلبت « عمره » أن تعود الى شرق الأردن لتلحق من هناك ببنى قومها وتستعيد حريتها ، كان الملك يعـد العدة لايفاد بعثـــة من عظماء الدولة فى موكب كبير الى فيلادلفيا ، لاحياء الحفلات فيها اسوة بعواصم بقيةالاقاليم الخاضعة له ، بمناسبة زواجه . فالتحقت عمرة بالموكب مزودة بالمـال والهدايا

□

هبط سكان فيلادلفيا من اعالى الجبل الى قاع الوادى حيث أعدت العـدة لاقامة المهرجان فى الملعب الفسيح . فأخذ الحكام والقضاة والكهنة أماكنهم فى الشرفة الاولى ، واعتلى الشعب المدارج فملأها على سعتها ، وانتشر الذين لم يجدوا لهم مكانا فى الملعب على المشارف المجاورة ، وهى ستة تلال تحيط بالمدينة وتنساب بينها مياه الغدير العذبة ، مغردة على حصى الوديان ، ساقية أنواعا عديدةمن الاشجار والرياحين .. وجلست عمرة مع الجالسين فى الشرفة الاولى مع رسل بطليموس ورجاله القادمين من مصر ، يتصدرهم رئيس تلك البعثة « فيليب القبرصى » القائد المحنك الذى تولى اخضاع القبائل فى التخوم الشرقية

وكان برنامج الحفلة رائعا .. فقد تتابعت فى حلبةالملعب جماعات من الموسيقيين والمغنين والشعراء والمنشدين ، كل منهم يعزف على آلة أو يترنم بأغنية ، أو يتلو قصيدا او يرتل نشيدا ، وتشابك الراقصون والراقصات فى حركات

فنية بديعة على انغام القيثاروالمزمار ، وتبارزأرباب السيوف والرماح فقتل منهم من قتل وجرح من جرح ، وتصارع المتصارعون ففاز منهم من فاز ، ونقل المغلوبون الى الخارج وقد تفككت مفاصلهم وسحقت عظامهم ، وعرض المروضون كلابهم وقرودهم وحميرهم وجاء رجل فينيقى بدب اسمر يلعب بالسيف والترس ، وتبارى الفرسان العرب على متون جيادهم الاصيلة التى حملتهم من بطن الصحراء للاشتراك فى ذلك المهرجان

وكانت خاتمة هذه المشاهد منازلة رجل افريقى لاسد هائج . فقد وقع ذلك الرجل فى الاسر وهو على رأس عصابة من اللصوص عاثت فى صحراء مصر فسادا فحكم عليه بالاعدام . لكن الرجل اقترح ان يوضع وجها لوجه مع الوحوش الكاسرة ، فاما أن تفترسه وينتهى الامر ، واما أن يتغلب عليها فيظل على قيد الحياة حراطليقا . وانقضت ثلاثة أعوام على اقامته فى الاسكندرية ، تغلب فيها على أربعة أسود ونمر وضبع وخمسة ذئاب . واراد بطليموس أن يساهم قاتل الوحوش هذا فى مهرجان فيلادلفيا فأرسله اليها مع بعثته ، ليصارع اسدا هائجا فيقتله أو يلقى فى المصارعة حتفه ! . . .

نزل الرجل الى حلبة الملعب عارى الجسم لا يستر عودته غير خرقة حمراء وفى يمينه خنجر صغير ، وقد لف ذراعه اليسرى بقطعة من الجلد المتين واطلق الاسد من قفصه الحديدى ، فاندفع فى الحلبة ثائرا مزمجرا ، وعلت اصوات المشاهدين داعية الزنجى الافريقى الى الحذر ورباطة الجأش ، وضاعفت الاصوات غضب ملك الغابات فارتفع زئيره المخيف وبعث الرعب فى النفوس ، ورأى الزنجى يقترب منه مقلدا زئيره ، فضرب الارض بذيله ، ونفض ذؤابته ، ووثب نحو فريسته مكشرا عن أنيابه . . .

ولكن الرجل تلقى الصدمة بذراعه اليسرى ، وجعل

يلاعب الاسد كما يلاعب القط الفأر ، فكان المشهد هائلالم تقع أعين سكان فيلادلفيا من قبل على مثله . وما هى الا دقائق معدودة ، حتى تمكن الرجل من تسديد طعنة من خنجره الى عنق الاسد ، فسال على الارض دمه ، وبلغ هياجه مبلغا عظيما ، فدار حول الحلبة قفزا وعدوا ، حتى اذا ما وصل أمام الشرفة الاولى حيث مندوب الملك وحاشيته تحفز فجأة ووثب وثبة زادها الالم قوة واندفاعا ، فبلغ حافة الشرفة وانشب مخالبه فى صدر « عمرة » ولكنه لم يتمكن من التعلق بها فسقط على ظهره ، وكان الزنجى قد أسرع اليه رافعا خنجره فأغمده فى عنقه مرة ثانية فثالثة ، فلهث وتدفق الدم من فمه بينما وضع الزنجى قدمه على رأسه حتى أصبح جثة لا حراك فيها ! وظل الزنجى حسب الوعد حرا طليقا

لكن الذعر كان قد استولى على الناس فعلا الهرج والمرج ، ولم يصفق للفائز غير فريق من المشاهدين بينما كان الباقون يسرعون نحو الابواب طلبا للنجاة ، ظنا منهم أن الاسد قد تسلق المدارج .. وأحاط رفاق « عمرة » بالفتاة الجريح يحاولون مبادرتها بالاسعاف ، ووقف نزيف الدم من صدرها الذى مزقته مخالب الاسد !

لكن محاولتهم ذهبت سدى . فقد اسلمت المسكينة الروح فى زفرة تقطع الكبد . وماتت فى اللحظة التى كان الزنجى يضرب فيها ضربته القاضية . فخرج الناس من الملعب واجمين ، وانتهى المهرجان بمأتم مشى فيه فيليب القبرصى ، ووراءه الكهنة وخادمات الهياكل وسكان فيلادلفيا حاملين المباخر والازهار ، فأودعوا « عمرة بنت سيور » العربية مرقدها الاخير ، فى ظل عريشة وارفة على ضفاف الغدير ..

مات الاسد ، ولكن بعد أن انتزع من الفتاة روحها ، وبعد ان انتزع العبد الافريقى حريته من بين مخالبه !

القميص الأبيض

كان الفراعنة والملوك البطالسة فى مصر
يصنعون لأنفسهم ، ويهدون الى أصدقائهم
قمصانا من خيوط القطن البيضاء ،
ويعدون منها أكفانا للرقدة الأخيرة

ـ على بالنساء جميعا ، الوصيفات والساقيات والنديمات على السواء ، فأننى فى حاجة اليهن يا شرميون : أرغب فى الافضاء على مسامعهن بأمنية لا شك عندى فى أنهن سوف يساعدننى على تحقيقها ، قبل رحيلى عن مصر بعد بضعة أيام

وأسرعت « شرميون » ، وصيفة كليوباترة المختارة ، الى تنفيذ أمر مولاتها ، فنادت رفيقاتها وصويحباتها من نساء القصر : ايلينا ، وهاستيا ، ورينابوث ، وفوتينا ، وغيرهن من مصريات ويونانيات ، فانتظمن فى حلقة زاهية ضاحكة ، على شرفة القصر المطلة على مياه البحرالزرقاء فى الاسكندرية ، حول كليوباترة المستلقية على وسائد اريكتها ، فى ثوبها الشفاف ، وبجانبها الفهد الاليف الذى جاءها به جنودها هدية من كهوف النوبة ، يوم وصول يوليوس قيصر الى العاصمة المصرية

وقالت الملكة المستهترة :

ـ اخواتى ، أنكن أحب الناس الى . بكن اثق وعليكن أعتمد فى السراء والضراء . وقد دعوتكن اليوم لاطلعكن على ما اعتزمته ، وأطلب منكن تحقيق رغبة نبتت فى صدرى الليلة ، وانا ساهرة فى مخدعى ، فهل لكن ان تصغين الى وتجبننى الى ما اريد ؟

فانطلقت من بين شفاه النساء الارجوانية كلمة واحدة ترددت وتكررت كتغريد العصافير :

ـ نعم ، نعم ، نعم !..

واستطردت كليوباترة تقول :

ـ لقد أحببت قائد الرومان قيصر العظيم ، واحبنى قيصر كما تعلمن حبا جامحا قويا ، سيطر على اعماله كلها وملك قيادى فخضعت له خضوع الأسير لآسره . ولكن القائد المحبوب بعيد عنا الآن ، يواصل مطاردة خصومه والقضاء على منافسيه فى أطراف الدولة الرومانية الشاسعة حليفتنا العزيزة . ومنذ أيام ، تلقيت منه خطابا يدعونى فيه الى اللحاق به فى روما . ولا يسعنى الا أن أرضخ لارادته ، فهل تنصحننى بالذهاب ؟

وانطلق التغريد مرة أخرى من بين الشفاه الحمراء :

ـ نعم ، نعم ، نعم !..

وارتسمت على ثغر الملكة ابتسامة الرضى والارتياح ، وعادت تقول :

ـ سأذهب اذن . وسأحمل معى كل ما يمكن أن تسعه السفينة من هدايا مصرية لقيصر المنتصر . غير أن هناك هدية ستكون على ما أعتقد أحب الهدايا اليه : فقد فكرت فى أن نصنع له قميصا من خيوط القطن المصرى البيضاء يرتديه تحت حلته الرومانية الفضفاضة ، فيفكر فينا كلما تسربل به ، ويذكرنا كلما خلعه عن نفسه ، ولكن أين هذا القميص أيتها الاخوات العزيزات ؟ أن الخيوط القطنية الرقيقة البيضاء لفى انتظار الانامل التى تحوك سداها ولحمتها ! وقد أزف موعد الرحيل وسوف ابحر من الاسكندرية بعد ثلاثة أيام ! فهل اناملكن الناعمة على استعداد لصنع هذا القميص الناصع ، قبل حلول الساعة التى تقلع فيها السفينة ، من الميناء ؟

وللمرة الثالثة ، غردت الشفاه الحمراء :

ـ نعم ، نعم ، نعم !..

ونهضت كليوباترة فرحة مهللة :

ـ لنعمل اذن أيتها الصديقات الحبيبات ، وسوف تكون

أنامل ملكتكن العاشقة أبعد الانامل دقة ، وأكثرها سرعة ، في حياكة القميص المنشود !

⊏

في ٩ أغسطس سنة ٤٨ قبل الميلاد ، هزم « يوليوس قيصر » خصمه « بومبيوس » في معركة « فرسال » ، ولحق به الى مصر حيث لجأ القائدالهارب الى الملك «بطليموس ديونيزوس » ، فقتله الملك وأرسل رأسه الى قيصر ليسترضيه . ولكن القائد العظيم هالته هذه الخيانة ، فعزم على الاقتصاص من القاتل ، وانقسم المصريون الى فريقين ، وانتهى الامر بأن هلك « ديونيزوس » غرقا ، وأجلس يوليوس قيصر على عرش مصر أخته كليوباترة وشاركها في الملك أخوها الثاني « بطليموس الطفل » الذي عقد زواجه عليها ، عملا بالتقاليد المرعية في ذلك الوقت !

وكانت الملكة في الحادية والعشرين من العمر ، والملك أخوها وزوجها في السادسة فقط ! ولم تكن كليوباترة الطموحة لتحسب حسابا لهذا الشريك في عرش عولت على الاستئثار به دون أفراد أسرتها جميعا ، فاعتزمت منذ تلك اللحظة أن توقع الروماني المنتصر في حبائل غرامها وأن تتحكم بقلبه ومن ثم بمصيره ، ثم تتخلص بمساعدته من الاخ الصغير الضعيف !

ووقع يوليوس قيصر في الشرك الذي نصبته له الحسناء المتوجة ، فأحبها ، وهو الكهل البالغ الثالثة بعد الخمسين من العمر ، وأصبح لا يطيق صبرا على فراقها

ولبست الاسكندرية ، بأمر من الملكة ، حلة الافراح والاعياد وشاهدت تلك العاصمة المصرية ، التي اتخذها العاشق الروماني الكهل ، والعاشقة الصبية ، مسرحا لغرامهما العجيب ، أروع مظاهر اللهو ، وأبهج الليالي الملاح

ولكن القائد اضطر اضطرارا الى الرحيل عن مصر لمواجهة الاخطار المحدقة ببلاده ، وقمع الثورات القائمة فى بعض اقاليمها ، فعز عليه الفراق ، وأوفد الرسل بعد الرسل الى حبيبته البعيدة ، لتلحق به فى روما العاصمة

▭

وابحرت كليوباترة ملبية نداءه ، فى سنة ٤٥ قبل الميلاد بعد أن تخلصت من اخيها الزوج بالسم ، وأحلت محله على العرش طفلها « قيصرون » ثمرة غرامها الرومانى ، حاملة معها الهدايا الثمينة ، ومن بينها القميص الابيض ، الذى حاكته اناملها وانامل وصيفاتها من خيوط القطن المصرى فى ثلاثة أيام !

ـ أنها لهدية ايها الحبيب سوف تذكرك بالحبيبة فى صحوك وفى نومك ، سواء أكانت كليوباترة بجانبك ام بعيدة عنك ، لان هذه الهدية ستلازمك أكثر من ظلك ، فتلامسك وتلامسها فى الليل والنهار !

وعانق يوليوس قيصر عشيقته وأنهالت عليها قبلاته الحارة ، وقال بصوت تخنقه العبرات :

ـ وانها أيتها الحبيبة لاعز الهدايا لدى . فسوف ألبس هذا القميص الذى ساهمت اناملك فى حياكته ، واباهى به ، وأعده ليكون لى فى نهاية العمر كفنا يلفنى فى طريقى الى العالم الآخر !

ونزلت ملكة مصر فى قصر أعده لها سيد روما على ضفاف نهر التيبر ، واراد أن يحاكى البذخ فيه بذخ القصور المصرية على شاطىء الاسكندرية وضفاف النيل ، وشاهدت العاصمة الكبرى بدورها ـ وقد اتخذها العاشق الرومانى الكهل ، والعاشقة الصبية ، مسرحا لغرامهما العجيب ـ

ما شاهدته العاصمة المصرية قبل ذلك من مظاهر اللهو والليالى الملاح !

وخيل للعاشقين ان الدهر لا يعد لهما غير السعادةوالهناء وفاتهما أن الدهر غادر لئيم ، وأن السعادة لا تدوم ، والهناء لابد أن يتبعه شقاء !

□

فى الخامسعشر من شهر مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد ، ذهب يوليوس قيصر كعادته الى مجلس الشيوخ الرومانى ، وقد أعد عدته لمواجهة الحملة التى قيل له أن خصومهمن أعضاء المجلس سوف يشنونها عليه ، لمحاسبته على أعمال القسوة التى ارتكبها ضد الشعب ، وعلى الانحلال الخلقى الذى يبدو منه ، فى سلوكه مع الملكة الغريبة التى نسى واجبه بين أحضانها !

ولما هم بدخول قاعة المجلس ، دس رجل مجهول فى يده ورقة سطرت فيها كلمات التحذير من مؤامرة دبرت لاغتياله . ولكن القائد المتكبر لم يأبه بالتحذير ولم يكترث ووقف صامدا متعجرفا يرد على التهم ويفندها ، حتى اذا ما اقترب منه المتآمرون وأحاطوا به ، وقدموا اليه عريضة يطلبون فيها العفو عن الاشخاص الذين اعتقلهم او أطلق زبانيته فى أثرهم للقضاء عليهم ، صاح قيصر بهم قائلا : « لن أعفو عن أحد ، وسوف يلاقى كل متآمر عنيد جزاءه ! »

حينئذ ، لمعت فى أيدى المتآمرين النصال ، وانهالوا بها على يوليوس قيصر ، صائحين : « مت اذن يا طاغية روما وظالم الرومانيين !»

وسقط يوليوس قيصر على الارض والدماء تنهمر من جراحه

واسرع أصدقاؤه واعوانه لنجدته ، ولكنهم وصلوااليه بعد فوات الوقت ، فرفعوا عنه الحلة الرومانية ، واذا بهم أمام جثة هامدة ، مزقت النصال صدرها ، ومزقت معه القميص المصرى الابيض ، الذى أهدته اليه كليوباترة ، والذى أصبح له كفنا لفه فى طريقه الى العالم الآخر !

□

دفن يوليوس قيصر اذن مكفنا بالقميص الذى حاكته أيدى الوصيفات وملكتهن فى الاسكندرية من خيوط القطن البيضاء فى الاسكندرية . وعادت العشيقة الى عاصمة ملكها حزينة حائرة ، ولكن حيرتها لم تطل ، فقد أوقعت فى حبائلها القائد الذى حل بعد يوليوس محله فى الشرق ، مرقس انطونيوس »

أما قيصرون ، ابن القائد الصريع ، فقد كتب له أيضا أن يموت قتلا مثل أبيه ، بأمر من اوكتافيوس ، فى سنة ٣٠ قبل الميلاد ، وهى السنة التى انتحر فيها انطونيوس وانتحرت فيها كليوباترة !

ومن يدرى اذا كانت الملكة الضالة لم تصنع لعشيقها الاخير ما صنعته للعشيق الاول : قميصا ناصع البياض من القطن المصرى ، كان لانطونيوس الفاسق كفنا ، كما كان من قبل لقيصر الطاغية كفنا !

الحرية الغالية

ان لم تساهم المرأة فى القتال من اجل
الوطن ، فلا أقل من أن تحرض رجلها
على القتال !

الليل هادىء ساكن . والبدر الكامل يضفى ضوءهالمائل الى الزرقة على مدينة « طيبة » القابعة فى وسط ذلك الهدوء والسكون على ضفة النيل المبارك . ومياه النهر تنساب بين الرمال والصخور ، شأنها اليوم كشأنها منذ آلاف السنين ومئات القرون ، وكشأنها فى الغد خلال مئات أخرى من الاجيال والقرون ، تروى الارض وسكانها لا فرق عندها بين عهد وعهد ، ولا يختل وفاؤها على كر الدهور ، سواء اكانت مصر ترتع فى نعيم الحرية ، اوتئن من جور الحكم الاجنبى البغيض

ذلك لان النيل لا يقصر نحو مصر وان قصرت مصر نحو نفسها ! ولا يعمد الى الامعان فى الارهاق بينما الغريب الغاصب يحط بأثقاله على كواهل المصريين . فالنهر الوفى الامين يواصل اغداق خيراته على مصر لانها منحة منه لاهلها ، وهو يعلم أنه الشريان الذى تستمد منه الحياة ، وأنها ــ مهما تكن وطأة الويلات والكوارث ــ سوف تنفض عن نفسها غبار الخمول والاستكانة ، وتنهض من كبوتها فى يوم من الايام ..

فى ذلك الوقت ، وفى تلك الليلة بالذات ، كانت مصر تتألم وتتوجع ! فقد انكمشت الدولة التى كانت بالامس رحبة الجوانب مترامية الاطراف ، وتفككت أوصال الامة التى كانت من قبل متماسكة متراصة متآخية ، وأفل النجم الذى طالما تلألأ فى فضاء المجد والعزة والاباء ، وأصبحت مصر دولة لايحكمها ابناؤها ، وأمة لايقودها الخلصاء من زعمائها .. فقد غمرتهاموجة الفتح ، وتدفقت عليها قبائل الرعاة الهكسوس من الشرق وحل اولئك

الفرسان من البدو محل ابناء البلاد ، فجلس منهم ملوك على عرش مصر ، واستقرت منهم اسر فى بيوت مصر ، واستأثرت ايديهم بخيرات الارض فى مصر ، وانتشرت قطعان ماشيتهم فى مراعى مصر . وأصبح السكان تابعين لهم فى المدن والحقـول على السـواء .. وأما الذين أبت نفوسهم الخضوع والخنوع ، فقد نزحوا عن ديارهم ومزارعهم واستقروا فى أقصى الجنوب ، حول مدينة « طيبة » العريقة فى القدم ، حيث لجأت فلول الاسر المالـكة ، والعائلات الكريمة ، والجيش المهزوم ، والفلاحين الذين فقدوا كل شىء ما عدا الامل فى مستقبل افضل من الحاضر

□

هذا ما فكر فيه العاشقان ــ « سكنن رع » و« عاحوتب » ــ وهما يستنشقان النسيم العليل على ضفاف النيل ، فى ذلك الليل الهادىء الساكن ، وفى ضوء البدر الكامل المائل الى الزرقة ، فى « طيبة » عاصمة مصر الحزينـة الجريحة

قالت « عاحوتب » وهى تتكىء على ذراع رفيقها فى تلك النزهة الخلوية :

ــ اننى متعبة الليلة أيها الحبيب .. متعبة الجسم ، منعبة الذهن ، منقبضة الصدر . وبالرغم من اواصر الحب التى تجمع بين قلبينا ، فقد بدات أشعر وأعتقد أن هذه الحياة لاتستحق أن نحياها ... نعم ، لقد سئمتها !..

فضم « سكنن رع » رفيقته الى صدره ، وسألها بلهجة افرغ فيها حنان الزوج والاخ :

ــ ما سبب هذا الحزن وهذا الضجر يا حبيبتى ؟.. هل ينقصك شىء فى هذه الحياة التى تشكين منها ؟..

ــ كلا ... لاينقصنى شىء ... فأنت فى آن واحـد

أخى وزوجى ، تحبنى وأحبك ، وتغدق على النعم بلا حساب .. لا لا ... لا ينقصنى شىء ... ولكن مصر بلادنا ينقصها كل شىء .. ومن اجلها انا متعبة ، وأنا حزينة ، وأنا منقبضة الصدر

ـ صدقت أيتها الحبيبة .. فمصر رازحة تحت نير الحكم الاجنبى ... ولكننا لسنا مسئولين عن هذه الكارثة وحدنا دون سوانا

ـ ولكنك أنت وحدك القادر الآن على ارسال الصيحة الاولى ، لكى تجعل مصر تصحو من غفوة أخشى أن تتحول مع الزمن الى سبات عميق !.. وانا الليلة عازمة على الافضاء اليك بأمر قد يرضيك وقد يغضبك ، لا أدرى ! ولكنه على كل حال سيرغمك على الخروج من عزلتك ، والاقدام على ماتتردد فى الاقدام عليه منذ شهور . وستفعل نساء مصر الليلة ما أنا فاعلته ، وتفضى كل منهن الى زوجها بما أنا مفضية به اليك .. وغدا عندما يطلع النهار على مصر ، سوف يجد الرجال أنفسهم امام أحد أمرين لا ثالث لهما

ـ وما هما الامران يا عاحوتب ؟

ـ لا .. لن أبوح لك بالسر هنا ، بل فى مخدعنا ، الليلة بين أربعة جدران ، وبعد أن أثبت لك أننى ما زلت بالنسبة اليك الاخت المحبة ، والزوجة العاشقة

ـ لنعد اذن الى قصرنا ، ولنسرع الى مخدعنا ، فان بى شوقا عظيما الى معرفة ذلك السر الرهيب !

وضحك « سكنن رع » .. ولكن « عاحوتب » لم تضحك ، بل قطبت جبينها ، واتكأت مرة اخرى على ذراع زوجها وعادت معه أدراجها الى القصر الرابض على حافة النهر ..

كان « سكنن رع » واحدا من عشرات الامراء والقواد

المصريين الذين قبعوا فى « طيبة » ، ورضوا بفتات العيش بعد رغده ، وخضعوا للامر الواقع ، وتركوا مصر نهبا للهكسوس ، واكتفوا برقعة ضيقة من الارض حول «طيبة» فأقاموا فيها شبه دولة ، أو على الاصح دويلات صغيرة لاتتجاوز مساحة كل منهـا مرمى البصر ، وكانوا كثيرا ما يتباحثون فيما بينهم ، ويتناقشون فيما آلت اليه بلادهم ، ولكن حماستهم لم تكن لتتعدى حدود الكلام وتبادل الآراء ، فلا تنتقل من حيز القول الى حيز العمل ، وأن عملوا فانهم لايواصلون العمل بل يقعدهم القنوط دون السير فيه

***

وكان « سكنن رع » أوفر أولئك الامراء والقواد جاها ومالا ، وأبعدهم نفوذا ، وأحبهم الى قلوب الشعب ، وأجدرهم للنهوض بعبء الثورة على الاجنبى المغتصب ، وجمع الكلمة حوله ، والسير بأمته الى مصير جديد.. ولكنه كان مترددا ، كثير الشكوك ، مفتقرا الى الثقة بالنفس ، التى لابد منها لدفع القائد الى الاقدام على المخاطر واقتحام السبل الى النصر ، وذلك بالرغم من أن الامراء والقواد جميعا كانوا يعترفون له بالمكانة الاولى ، ويقرونه على زعامته بل ويعدونه بمثابة فرعون الجالس على العرش ، وان كان العرش متمايلا مفـكك الجوانب فان اسرته تمت حسبا ونسبا الى الاسرة المالكة السـابقة ، وآباءه حملوا لقب « فرعون » وكان هو نفسـه يعرف بين أقطاب المملـكة الصغيرة باسم « سكنن رع » الثالث ، وابنه « احمس » الصغير يعرف بين اطفال طيبة بانه « ولى عهد » أبيـه ووارث عرش مصر السفلى من بعده !

أما « عاحوتب » الجميلة الفاتنة ، فهى أخته وزوجته وتلك كانت عادة الفراعنة منذ أقدم العصور : يتزوج الاخ

أخته ، واذا مات اتخذها أخوها الآخر ـ وأخوه أيضا ـ زوجة له !

وكانت « عاحوتب » امرأة مقدامةجريئة ، تضعأقدامها وجرأتها فى خدمة هدفين عللت النفس بهما ، أحدهما يتعلق بشخصها ، والآخر يتعلق بوطنها ، فهى تريد أن تكون مصر حرة مستقلة ، مطهرة من كل رجس أجنبى ، لكى تتبوأ بجانب زوجها عرشا يضم بين دفتيه شمالمصر وجنوبها .. تريد لشعبها الحرية ، وتريد لنفسها الملك على شعب حر !..

لهذا راحت توغر صدر زوجها « سكنن رع » على الهكسوس الغاصبين ، وتثير فى صدره الحماسة وتبعث فيهالثقة ، وتستنهض همته الفاترة ليعلن الثورة على ملوك الرعاة واقوامهم وأتباعهم وصنائعهم من أهل البلاد ، ويزحف على رأس الثائرين نحو الشمال ، ويسترجع البلاد لاهلها ، أو يموت فى هذا السبيل وتموت هىبجانبه! ولما أعيتها الحيلة ، وعجزت عن اقناع زوجها بالاضطلاع بذلك العمل العظيم ، بحجة أن الجيشالذى لديه ضعيف قليل العدد ، وأن الشعب غير ناضج للثورة ، عمدت الى وسيلة للاقناع لم تخطر لاحد فى بال ، لا من قبل ولا من بعد ، وهى موضوع السر الذى عادت بزوجها الى القصر للافضاء به اليه فى مخدع النوم وبين أربعة جدران !

▭

طلع النهار « وعاحوتب » بين أحضان زوجها « سكنن رع » ، تداعبه حينا ، وتنطلق معه حينا آخر الى منضدة تتوسط الحجرة ، لالقاء نظرة على اللوحات المبعثرة عليها والتى غطيت صفحاتها بالارقام والرسوم والاحاجى الهيروغليفية .. وأخيرا قالت الزوجة لزوجها :

ـ حبيبى،الآن وقد ارتشفنا كأس الغرام مترعة،واثبت لك أننى ما زلت اليوم كما كنت بالامس العاشقة المتيمة الولهانة ، فاننى أطبع على شفتيك قبلات حارة يجب أن تعلم أنها قبلات الوداع

وانتفض « سكنن رع » لسماعه هذه العبارة ، واراد أن يتكلم ، ولكن « عاحوتب » وضعت يدها الناعمة على فمه واستطردت تقول :

ـ لا تتكلم ، ولا تعترض ، ولا تستفسر عن شيء قبل أن انتهى من الافضاء اليك بالسر الذى من أجله عدنا الى هنا نعم أن هذه القبلات ستكون الاخيرة .. ولكن الى حين ، ففى مقدورك انت وحدك أن تستأنف تبادلها فى يوم من الايام .. أن كل امراة مصرية فى هذه الليلة تقول لزوجها ما أقوله لك ، وتطلعه على سرها كما أطلعك ، وتوجه اليه الانذار الذى أوجهه اليك .. فاسمع يا سكنن رع ، يا أمير امراء مصر ، ووارث عرش الفراعنة : لقد اجتمعنا سرا نحن نساء عظماء المملكة ، واتخذنا قرارا بالاجماع لن تحيد عن تنفيذه واحدة منا .. اننا نعلن منذ صباح هـذا اليوم الذى يطلع فجره فى هذه اللحظة ، اننا نقاطع رجالنا فلا نقترب منهم بعد الآن ولا نمارس معهم فرائض الزوجية ولا نقبل منهم هدية او عطاء ، ولا نخرج معهم فى نزهة ولا نرافقهم فى سفر ، ولا نؤم الهياكل بصحبتهم ، ولا نرضى بالاحتفاظ بالحلى وادوات الزينـة التى قدموها الينا بعد الزواج ولا نتجمل ولا نتبرج ، الا بعد أن ينطلق ازواجنا الى ميادين الحرب ، ليقاتلوا الاجانب الغاصبين ، ويجلوهم عن أرض الوطن ، ويعيدوا الى مصر كيانها ، وحريتها ، ومجدها ، وسيادتها ! واذا ادعى الرجال انهم قليلو العدد ، فاننا ننضم اليهم لنقاتل فى الميادين مثلهم .. واذا قالوا انهم يفتقرون الى مال فجواهرنا وحلينا تحت

تصرفهم .. واذا تعللوا بخوفهم من بطش الهكسوس بالبقية الباقية من شعب مصر ، فجوابنا عليهم أنه خير لنا أن نفنى دفعة واحدة فى ساحة الشرف ، من أن نفنى رويدا رويدا فى بؤرة الذل والخمول ! هذا ما قررناه .. هذا يا سكنن رع هو السر الذى عولت نساء مصر الليلة على الافضاء به الى أزواجهن ، وهذا هو الامر الرهيب الذى عقدنا جميعا النية عليه .. فالوداع يا حبيبى .. اننى لن أطبع بعد الآن على جبينك قبلة ، ولن أقابلك بابتسامة ، الا اذاكانت القبلةقبلةتهنئة بالنصر ، والابتسامة ابتسامة فرح بالحرية الغالية !!

وفى تلك اللحظة ، بينما الفجر يكشف عن ثغره ، كانت كل امرأة فى طيبة تودع زوجها مرددة تلك العبارات ذاتها : « لن أطبع بعد الآن على جبينك قبلة ، ولن اقابلكبابتسامة الا اذا كانت القبلةقبلة تهنئة بالنصر ، والابتسامة ابتسامة فرح بالحرية الغالية ! »

وما كاد الاله « رع » يغدقعلى أرض مصر اشعته المنعشة ، وما كاد ذلك النهار المشهود ينتصف حتى كان « سكنن رع » الثالث قد أعلن الثورة على الغاصبالمحتل وتبعه أمراء « طيبة » فشقوا عصا الطاعة على الهكسوس وهب الشعب بأسره من رقدته ، وهرع كل مصرى الى سلاحه ايا كان ، ملبيا نداء الوطن وصائحا لصيحته ، فى سبيل الحرية الغالية !

□

زحف المصريون من « طيبة » الى الشمال ، وداهموا مواقع الهكسوس ومعاقلهم وحصونهم المنعزلة فاستولوا عليها واحدا بعد واحد . ثم اصطدموا بحاميات المدن ففتكوا بها واحدة بعد واحدة . ولكن الهكسوس ، الذين

فوجئوا فى بادىء الامر بهذه الثورة التى لم يحسبوا لها حسابا،جمعوا جموعهم ، وسيروا جيوشهم لملاقاة الثائرين

وتضاعفت همة المصريين بمضاعفة الخطر ، وأيقنوا أن التراجع معناه الهلاك ، وان فى هلاكهم فشل الثورة ، وفى فشل الثورة فناء مصر !

والتف الشعب بجميع طبقاته حول سكنن رع الثالث ونودى به فرعونا على مصر بشقيها الجنوبى والشمالى ، تيمنا بالنصر القريب واستعجالا له . وخضع الامراء والقواد جميعا لزعيم الثورة ، اعترافا منهم بمكانته وفضله، واقرارا بأن جده « سكنن رع » الاول كان أسبق الامراء الى مناصبة الهكسوس العداء وأن « سكنن رع » الثانى نسج على منواله ، ثم جاء الثالث فأعلن التحرير واستحق أن يتبوأ العرش بدون أن ينازعه فيه منازع

كان أسلاف « سكنن رع » الثالث يقاومون فى الجنوب ويشتبكون أحيانا فى مناوشات مع الهكسوس على طول مجرى النيل ، ولكن « سكنن رع » الثالث كان أول « فرعون » من الاسرة السابعة عشرة خاض ضد الرعاة حربا حقيقية هى فى الواقع أولى مراحل حرب التحرير فى مصر . وقد دفع أمامه قبائل الهكسوس وأجلاهم شيئا فشيئا عن مدن الوجه القبلى ، ومدن مصر الوسطى ، والمزارع والحقول الممتدة على ضفتى النهر ، وأقام حاميات مصرية محل الحاميات الاجنبية ، وأعاد الفلاحين الى أرضهم ، وشيد الهياكل لآلهة مصر وسلمها للكهنة الذين جاء بهم من طيبة ، واستغرقت تلك المرحلة من الحرب بضعة أعوام حالف النصر فيها أعلام فرعون ، وعادت فيها الى نفوس المصريين ثقتهم بأنفسهم ، وأيقنوا أن الجلاء التام آت لا ريب فيه ، وان مصر ستتمتع فى الغد القريب كما تمتعت فى الامس البعيد ، بحريتها الكاملة ، واستقلالها التام ، وسيادتها المطلقة

وبعدنشوب الثورة ، واحراز الثائرينانتصاراتهم الاولى وتراجع الغزاة الاغراب خطوة بعد خطوة الى الوراء ، رأت نساء مصر أنهن قد أصبحن فى حل من القسم الذى قطعنه على أنفسهن وأن رجالهن قد نفذوا الشروط التى فرضنها عليهم للعودة الى الحياة الزوجية ، والعدول عن المقاطعة العجيبة التى قررن تطبيقها بايعاز من « عاحوتب » ، زوجة فرعون قائد الثورة !

وكانت « عاحوتب » أسبقهن الى الدعوة بوجوب استئناف العلاقات مع الازواج ، ما داموا قد ثاروا لمصر وعقدوا العزم على تحريرها من النير الثقيل ، فزينت النحور والمعاصم من جديد بالحلى والجواهر ، وسكر المصريون من جديد ايضا بنشوة الغرام بعد أن سكروا بنشوة النصر !

ووصلت طلائع جيش الثورة الى منطقة « اواريس » وهى « الهوارة » الواقعة فى شرق الدلتا ، حيث كان الهكسوس قد أعدوا قاعدة حكمهم ، ومقر سلطانهم ، ومستودع كنوزهم .. فدارت بين الفريقين معركة رهيبة أوشك الثائرون أن يحرزوا فيها النصر النهائى ، لو لم تحدث مفاجأة غيرت مجرى القتال وأجلت النصر الى حين ..

فقد أصيب فرعون « سكنن رع » بضربة فأس فى رأسه وبعشرات السهام التى استقرت فى جسمه ، وهو فى طليعة جيشه يخوض غمار القتال غير هياب ولا وجل. فتضعضع الجيش بفقد قائده ، وارتد المصريون حاملين معهم فرعون الجريح الى حيث أمنوه وأمنوا أنفسهم من الخطر

وودع « سكنن رع » هذه الحياة الفانية الى حياة الخلد ، قرير العين بما صنع من أجل وطنه ، واثقا من أن ابنه الذى سيخلفه على العرش ، سيواصل القتال الى

أن يتم له تحرير الوادى من أقصى جنوبه الى أقصى شماله

وبموت « سكنن رع » الثالث ، انتهى عهد الاسرة السابعة عشرة ، وتبوأت الاسرة الثامنة عشرة العرش ، بارتقاء ابنه « أحمس الاول » ، فى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد وهو الذى تم فى الواقع على يده طرد الهكسوس من مصر . .

□

اذا زرت المتحف المصرى بالقاهرة ، فعرج على القاعة التى رصت فيها جنبا الى جنب تلك الاجساد البالية الباقية فى آن معا ، أجساد الفراعنة المكفنين . فانك ستجد بينها مومياء « سكنن رع » الثالث ، وتتبين فى رأسه أثر الجرح العميق الذى أصيب به فى آخر معركة خاض غمارها بضربة فأس هكسوسى

ثم عرج على القاعة التى تكدست فيها الجواهر والحلى فانك ستجد فيها مجموعة من أبدع وادق ما صنعته يد الانسان من هذا القبيل : تلك هى المجموعة المعروفة باسم « عاحوتب » ، أخت « سكنن رع » ، وزوجته صاحبة الفضل الاول فى دفع فرعون والشعب الى الثورة ، والتى قدر لها أن تعيش طويلا لكى تشاهد رحيل الغزاة نهائيا عن أرض وطنها

مصرية تنقذ السودان

يقول المثل السائر - وهو صادق :
((انا واخى على ابن عمى ، وانا وابن عمى
على الغريب !))

دخل أعضاء الوفد النوبى واحدا بعد واحد الى القاعة الكبرى ، حيث استوى « قمبيز » على عرشه ، وخروا أمامه ساجدين وقبلوا الارض بين يديه . فأشار لهم ملك الملوك بأن يقفوا ، واذن لهم بأن يبسطوا الغرض من مثولهم فى حضرته ، فتقدم واحد منهم ، ولثم طرف الطيلسان الملكى ، ورفع يده بالتحية على الطريقة المصرية ، وقال :

ـ أيها المولى المعظم الشجاع ، جئنا اليك عشرون من أبناء « كوش » المقيمين فى مصر ، ومعنا امرأة واحدة ليست أقل شأنا من الرجال ، فهى كاهنة وابنة كاهن ، وساحرة وأخت ساحر ، وطبيبة وزوجة طبيب . والخطة التى جئنا نعرضها عليك ، انما هى من بنات أفكارها . فقد رأت « داشيتا » ، الكاهنةالساحرةالطبيبة ، أن يذهب وفد من النوبيين النازلين فى أرض مصر ، مزودا بثقتك أيها المولى المعظم الشجاع ، والسيد المنتصر المطاع ، الى أرض « كوش » الواقعة جنوبا ، لينصح ملكها بأن يقدم لك فروض الطاعة والخضوع ، ويبعث اليك بالهدايا دلالة على تلك الفروض ، ويعبىء جيشه ، ويضعه تحت تصرفك اذا اقتضت الحاجة ذلك ، ويوفد من ناحيته الرسل الى بلاد الحبشة وأرض « ميروا » وماوراءها من بقاع وأصقاع داعيا الشعوب والقبائل الضاربة فيها الى أن تنسج على منواله ، وتصنع ما هو صانع !

وسكت الرجل .. فرفع « قمبيز » رأسه ، وحدق ببصره فى الجماعة ، وسأل بصوت جاف قاطع :

ـ أين داشيتا ؟

فخرجت من بين الجماعة امرأة فى مقتبل العمر ، عليها مسحة من الجمال المقرون بالجلال ، وانحنت امام الملك ثم رفعت يدها بالتحية ، وأجابت على السؤال :

ـ أنا هى : الطبيبة الساحرة الكاهنة ، التى حدثك عنها هذا الرجل يا قمبيز . واننى لا أشك لحظة واحدة فى قدرتى على اقنـــاع ملك « كوش » بالاذعان الى ما نحن معولون على طلبه منه . فهو رجل عاقل رزين . وهمه الوحيد ، منذ أن تولى عرش بلاده ، أن يجنبها ويلات الحروب ، ويضمن لها العيش الرغد والطمأنينة والسلام . ولن يتحقق له ذلك ، فى عرفنا ، الا بالخضوع لسلطانك والطاعة لارادتك ، بعد أن أحرزت ما أحرزته من انتصارات فى مصر !

وسكتت المرأة ، فعاد قمبيز يسأل :

ـ وماذا تطلبون منى مقابل قيامكم بهذه المهمة ، وادائكم هذه الرسالة ؟

فأجابت داشيتا :

ـ أن توفر لنا وسائل الانتقال ، وتمنحنا رضاك !

وحدق قمبيز البصر مرة أخرى فى المرأة ورفاقها ، ثم أشار اليهم بالخروج قائلا :

ـ غدا ، فى مثل هذه الساعة ، تأتون الى لسماع رأيى فيما تقترحونه على !

□

كان قمبيز ملك الفرس قد هاجم مصر واقتحم حدودها ودك حصونها وقلاعها ، فى عهد فرعون « بســـماتيك الثــالث » . ودافع المصريون عن بلادهم دفاع الابطـال المستميتين . وقاتلوا قتالا مجيدا فى كل شبر من أرض آبائهم وأجدادهم . ولكن الجيوش الفارسية الجرارة كانت

تدفعهم امامها دفعا بكثرة عددها ووفرة عدتها ، ولما سقطت اقاليم مصر السفلى فى أيدى الغزاةالفاتحين ، جمع بسماتيك البقية الباقية من فلول قواته ، واعتزم ان يموت تحت انقاض عاصمته « منف » ، قبل ان تدنسها أقدام الفرس ويتربع فى قصرها الملكى سيدهم وقائدهم

وشعر « قمبيز » بأن أخذ العاصمةالمصرية عنوة سيكلفه ثمنا باهظا ، فأوفد رسله الى فرعون يعرضون عليه التسليم والصلح ، ولكن «بسماتيك» امر بذبح الرسل ورفع اشلائهم على الاوتاد فوق الاسوار ، وتلك كانت عادة الملوك فى اعلان رفض الشروط التى يعرضها عليهم ملوك آخرون فى سبيل وضع حد للقتال . فثارت ثائرة الفاتح الفارسى ، والقى بجيشه كاملا الى المدينة ليقتحم أسوارها ، وبعد معركة استمرت عشرة أيام بلياليها ، كان النصر حليف الغزاة ، ووقع فرعون فى الاسر ، وحكم عليه « قمبيز » بأن يشرب دم ثور اسود ، فشرب ومات ، واستوى الفارسى منذ هذا الوقت على عرش الفراعنة الذى توالى عليه ملوك من غير أبناء مصر مائة واحدى عشرة سنة ، أى من عام ٥٢٥ الى عام ٤١٤ قبل الميلاد ، وهم الذين عرفوا باسم الاسرة السابعة والعشرين

وبعد أن استقرت الامور لقمبيز فى مصر ، وفر الباقون من انصار «بسماتيك» وذويه واعوانه فاختبأوا فى المستنقعات الممتدة على ساحل البحر المتوسط ، راح الفاتح يفكر فى غزوات جديدة ، ويطمع فى بسط سلطانه على ما تبقى من ممالك فى القارة الافريقية ، فى غرب مصر وجنوبها

فى تلك الظروف ، تقدم اليه فريق من النوبيين مع المرأة « داشيتا » ، عارضين عليه خدماتهم ، فى سبيل تحقيق ما كان يطمع فيه ويتطلع اليه

لم تكن داشيتا نوبية كما تبادر الى ذهن العاهل الفارسى من خطابها وخطاب رفيقها النوبى . بل كانت مصرية

صميمة ، تمت الى الاسرة المالكة : فهى ابنة عمة فرعون بسماتيك الثالث

أراد « فرعون احمس » ابو بسماتيك ، أن ينشر عبادة آلهة مصر فيما وراء شلالات النيل ، حيث كانت الديانة المصرية قد اكتسبت اتباعا عديدين ، فزوج أخته لكاهن من المقربين اليه ، اسمه « بانيحور » كانت أخته من ناحيتها زوجة لملك كوش ـ وهى شمال النوبة وجزء من السودان ـ وجاءت داشيتا ثمرة ذلك الزواج بين الكاهن وأخت فرعون

ورزق « بانيحور » من زوجته الاميرة ابنا احترف السحر ومخاطبة الارواح . ولما بلغت الفتاة « داشينا » سن الزواج ربطت حياتها ، بأمر من فرعون ومن أبيها الكاهن ، بطبيب كوشى كان موضع ثقة قومه ، ومن المقربين الى الملك زوج عمتها أخت الكاهن بانيحور

وهكذا أصبحت الفتاة ، كما وصفها المتكلم بلسان الوفد النوبى أمام قمبيز : ابنة كاهن ، وأخت ساحر ، وزوجة طبيب .. وكانت مثلهم طبيبة وساحرة وكاهنة !

هذا ما لم تقله « داشيتا » لقمبيز المنتصر المتغطرس . ولم تقل له أيضا أن أباها الكاهن ، وأخاها الساحر ، وزوجها الطبيب ، قتلوا جميعا بأيدى الفرس ، وهم يدافعون عن مدينة « منف » عاصمة مصر . فقد كانوا دائمى التنقل بين جنوب الوادى وشماله ، بين وطن لهم فى كوش ، ووطن لهم فى مصر : فالعشيرة بعضها هنا وبعضها هناك . والآلهة هناك وهنا واحدة . وفى كوش كانوا يغتسلون فى مياه النهر المبارك ، ثم يتبركون بها فى مصر ، يوم تغدق خيرات فيضانها على الوادى المقدس .. وفى كوش تنشر الاسرة تعاليم دين تستلهم مبادئها من مهابط الوحى فى « منف »

وقد فاجأ القوم الغزو الفارسى فى احدى رحلاتهم الى

مصر ، فحملوا الســلاح مع المصريين للدفاع عن الشطر الشمالى من الوادى ، اقتناعا منهم بأن الدفاع عنه انما هو دفاع عن الشطر الآخر ، الشطر الجنوبى ، وهذا وذاك عليهما عزيزان !

مات الثلاثة ميتة الابطال : الاب الكاهن ، والزوج الطبيب والاخ الساحر . وبقيت « داشيتا » يتيمة وحيدة ثكلى ، تنشد الثأر للضحايا الثلاث ، ولا تجد اليه سبيلا ، بعد ما حل بمصر ، أحد وطنيها من احن وويلات .. ولكنها راحت تفكر وتطيل التفكير ، وتبحث وتمعن فى البحث ، حتى هدتها الآلهة الى رأى ما أفضت به الى جماعة من الكوشيين المتخلفين فى مصر ، حتى وافقوها عليه وتعهدوا لها بأن يساهموا معها فى وضعه موضع التنفيذ

ويرمى ذلك الرأى الى ايقاع الفاتح الفارسى فى شرك ينصب له . فقد وضح لكل ذى بصيرة ، بعد سقوط «منف» وقيام الحكم الفارسى فى مصر ، أن « قمبيز » ينوى المضى فى طريقه الى فتوحات جــديدة ، وان النوبة وكوش وما وراءهما من بلدان معروفة أو مجهولة ، ستكون هدفه القادم ان عاجلا أو آجلا . فلا بد اذن من تمهيد السبيل لتكون تلك البلدان مقبرة لجيوشه الجرارة ، وذلك بتحريضه على دفع تلك الجيوش الى المجاهل الافريقية ، من ناحية ، والتآمر عليه من ناحية أخرى مع ملك الكوشيين وزعماء القبائل المجاورة له ، لكى يتظاهروا بالطاعة والخضوع ، فى حين أنهم ، فى الواقع ، يخلون البلاد من أهلها ، ويجردون الارض من نباتها ، ويقطعون غاباتها ، ويردمون آبارها ، ويحولونها الى صحراء قاحلة

ووقع « قمبيز » فى الفخ ، وزود الوفد النوبى بالمال والركائب والهدايا ، وراح يعد جيوشه لاستئناف الزحف

قابل ملك كوش مواطنيه القادمين من مصر بالترحاب . وأصغى الى ما اطلعوه عليه من حقائق ووقائع . وأدرك أن خلاصه وخلاص قومه وبلاده وجيرانه فى العمل بالنصائح الغالية التى حملتها اليه « داشيتا » الوفيةالامينة . فأوفد فى الحال رسلا الى مصر يدعون قمبيز الفارسى للسير الى كوش ومنها الى الحبشة وأرض « ميروا » . وأوفد فى آن واحد جماعات من رجاله الى القرى والمزارع الواقعة على الطريق ، حول مجرى النيل أو فى بطون البادية أو وسط الغابات ، فأخلوها من سكانها وأضرموا فيها النيران،وقطعوا الاشجار ولم يتركوا أثرا لماء فى بئر أو فى عين . وأرغموا الوحوش والطيور على الخروج من الادغال والفرار أمام النيران الملتهبة . ولما تقدمت جيوش الفرس بمعداتها ، على أمل أن تجد الشعوب فى طريقها ساجدة تقدم الهدايا وتتسابق الى خدمة الفاتحين وتوفير أسباب الراحة لهم ، اذا بها لا تجد غير قفر موحش لا ماء فيه ولا نبات ، ولا أنس ولا حيوان ولا طير

واستمعت الآلهة الى دعاء « داشيتا » ، ابنة الكاهن وأخت الساحر وزوجة الطبيب ، فأطلقت قوى الطبيعة من عقالها وهبت الرياح العاصفة الهوجاء من كل صوب ، وسلط الآله المتربع على عرش الشمس اشعته الحارقة على رءوس الجنود الاغراب فكانت أشد وطأة عليها من السهام الفتاكة ، وانطلقت فى الجو سحب من الرمال تسفيها الرياح فى وجوه الزاحفين ، ثم ترفعها وتلقيها عليهم تلالا فوق تلال ، فخيل الى قمبيز أن الجحيم قد تفتحت أبوابه ومنافذه ، وأدرك أن نجاته فى العودة على أعقابه من حيث أتى

ولكن ، كيف السبيل الى العودة وقد قطعت جيوشه تلك المسافات الشاسعة واصبحت فى اعتقاده على قاب قوسين أو أدنى من الهدف المنشود !..

ولما أيقن الفاتح العظيم أن انتصاره فى مصر يتحول هنا شيئا فشيئا الى كارثة ماحقة ، وأن المرأة التى جاءته مع وفد من النوبيين قد غررت به وخدعته ، وأنه وقع فى فخ نصب له ، وانقاد لمكيدة حاكت خيوطها أنامل كاهنة ساحرة تفقد عقله فاذا بعقله قد ضاع ، وحاول أن يفكر فى طريقة تخرجه من ذلك المأزق الحرج فاذا بذهنه عاجز عن التفكير

نعم ، أصيب قمبيزبالجنون ، وسط العواصفوالاعاصير والرياح العاوية كالذئاب ، فى الصحراء النوبية القاحلة الجرداء !

ولم تكن الجماعات الفارسية التى وصلت الى مصرعائدة من تلك الحملة المرعبة ، جيشا يخشى جانبه ، بل كانت فلولا مقطعة الاوصال ، وأشباحا لرجال كانوا بالامس فى مصاف الابطال !

ولم يكن القائد الذى عاد الى مصر مع تلك الفلول غير شبح أيضا : شبح الفاتح العظيم الذى دوخ العالم وهزم الجحافل فى كل مكان ، فدوخته حيلة امرأة ، وهزم جيشه بلا قتال ، فى ارض لا أثر لعدو فيها !

واعتقد قمبيز أن آلهة مصر حالفت المصريين عليه ، فأمر بهدم هياكلها وتحطيم تماثيلها ، ودفعه جنونه الى ذبح العجل ابيس ، الذى شاءت الظروف ان يولد فى اليوم الذى وصل فيه ملك الفرس الى منف عائدا من غزوته الخائبة !

ولم يعش قمبيز أكثر من عام واحد بعد تلك الصدمة ، فقد مات فى سنة ٥٢٢ قبل الميلاد

أما « داشيتا » ، فقد بقيت فى وطنها الثانى « كوش » حيث احاطها القوم بمظاهر التبجيل والتكريم ، لانها فى نظرهم قد أنقذت وطنهم من الوقوع فى عبودية الفرس ،

بحملها الملك على تنفيذ الخطة التى تفتق عنها ذهنها .
وأحاط المصريون أيضا ذكرها واسمها بالاجلال والتقدير لانها كانت سببا فى اهلاك الجيش الفارسي ، ودفع العاهل الفاتح قمبيز الى الجنون فالموت ، مما أدى الى اضعاف حملة الارهاب الرامية الى افناء السكان

وعاشت « داشيتا » الكاهنة ابنة الكاهن ، الساحرة اخت الساحر ، الطبيبة زوجة الطبيب ، بقية أيامهاقريرة العين مرتاحة الضمير : فقد ثارت لاحبائها الثلاثه ، الاب والاخ والزوج ، الذين قتلوا فى سبيل مصر ، وثارت للوطن الاول الذى انجبها ، ودفعت الشر عن الوطن الثانى الذى احتضنها !

عثمان دقنة

تبـاينت الروايات وتناقضت حول الزعيم السوداني ((عثمان دقنه)) . ويعتقد الـكاتب أن قصته الحقيقيـة هى التى يوردها هنا :

جلس الصديقان الشـــابان فى حوش المدرسة الحربية بالقاهرة ، وجعلا يتجاذبان أطراف الحديث ، فأفضى كل منهما الى صاحبه بما يجيش فى صدره من آمال واسعة ، ومطامع بعيدة

اسم أحدهما أحمد عرابى ، واسم الثانى عثمان الصغير

تحدثا طويلا عن مصر والسودان ، عن الحاضروالمستقبل عن الشرق والغرب ، عن الحروب السابقة والمقبلة ، عن كل ما يثير اهتمـــام شابين تجرى فى عروقهمـــا دماء حارة ، وتختلج فى صدريهما روح وثابة ، ويدفعهما الأقدام الى السعى وراء المغامرات ، وركوب متن الأخطار ، طلبا للمجد أو رغبة فى الشهرة

جاء عثمان الصغير الى المدرسة الحربية ، وكان قليـــل الكلام يميل الى العزلة ، فلم يصـــادق من بين رفاقه غير احمد عرابى . وتوثقت بين الشابين عرى أخوة متينة ، وروابط محبة خالصة

وكان عثمان فى ذلك اليوم قد عول على ترك المدرسة والرحيل عن مصر . فكان لقاؤهما فى الحوش جلسةالوداع وكان حديثهما خاتمة الأحاديث

وقد فرقت الأقـــدار بينهما فراقا دائما . وسعى كل منهما الى تحقيق أهدافه وأمانيه بالوسائل التى توافرت له

قاد أحمد عرابى ثورة الجيش المصرى فى سنة ١٨٨٢ . وكان عثمان الصغير فى الوقت ذاته يجمع جموعهفىالسودان الشرقى ويخوض غمار الحرب ضد المصريين والانجليز

سنة ١٩٠٠

ما أسرع الأرض فى دورانها ، وما أسرع الأيام والاعوام فى تتابعها

دارت الدائرة على الدراويش بعد حرب دموية طاحنة وطورد عثمان من مكان الى مكان ، وخر فى النهـاية على الارض منهوك القوى ، ووقع فى الاسر فأرسل الى السجن فى الخرطوم

أفل نجمه فاستسلم لحـكم القدر . وجلس بين جدران سجنه ، وأخذ لحيته الكثيفة بين أصابعه ، وراح يعبث بشعورها البيضاء

وشردت أفكاره الى الماضى القريب والبعيد . فتذكر شبابه . وتذكر الاسكندرية ، وتذكر صديقه أ حمد عرابى الذى وقع فى الأسر مثله ، وأرسل الى السجن مثله

وتذكر صباه ، هناك ، فى بلاد نسى لغتها ، ونسى أهلها وهى لغته ، وهم أهله :

ما أقسى القدر وما أغرب الحياة !

تجلت للأسير صفحات حياته ، فجعل يقلبها واحـدة واحدة ، ويقرأ فيها مادونه بأعماله من سطور

عادت به الذكرى الى تلك المدينة الفرنسية التى رأى فيها النور ، والتى كان يجـرى فى طرقاتها وأزقتهـا مع الصبيان

اسمها « روان »

واسم والده « نيسبت »

واسمه هو « جورج »

أما الان ، فهو عثمان دقنه السودانى !

يا للغرابة !

هاجر « نيسبت » الأب من وطنه سكوتلاندا الى فرنسا مع زوجته الشابة ، واستقر به المقام فى مدينة « روان » حيث فتح حانوتا لبيع المأكولات والمشروبات ، وكثر اقبال العمال والفلاحين عليه فراجت تجارته ، وأحبه الناس لما اتصف به من خلق كريم ، وحديث فكه ، وحب للخير

ورزق نيسبت فى روان ، سنة ١٨٣٦ ، مولودا اسماه « جورج »

لكن الرجل لم يطق الاقامة طويلا فى فرنسا ، فحمله ميله الى المغامرات والاسفار ، على بيع حانوته ، والرحيل الى الاسكندرية مع عائلته الصغيرة

وهناك عرف رجلا من الأناضول يدعى « عثمان خير الدين » يمارس تجارة الرقيق بين الاستانة والاقطار الافريقية ، ويعد من كبار النخاسين فى ذلك العهد

كان عثمان النخاس فى حاجةالى رجل من الغرب يحسن اللغات الاجنبية ، فاستخدم نيسبت الذى أخلص لهالخدمة وعاونه فى أعماله الواسعة ، وأصبح فى مدة قصيرة حائزا على ثقته ومحبته

لكن مرضا خبيثا أودى بحياة المسكين فى سنة ١٨٤٨ ، فبقيت زوجته وحيدة مع ابنها جورج ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره

غير أن عثمان خير الدين كان وفيا لصديقه بعد موته . فقد ظل ينفق على المرأة وابنها ، وطلب الى الزوجةالحزينة الا تمد يدها الى ما ادخرته من مال ، وأن تحفظه لجورج كاملا كما تركه أبوه

وجاءته المرأة ذات يوم حزينة كئيبة ، وقالت :

ـ لقد غمرتنا بعطفك . ولكننا لا نريد أن نبقى هنا عبئا عليك . فهل لك أن تساعدنا على العودة الى فرنسا حيث لنا أصدقاء ومحبون ؟

فأجابها عثمان :

ـ أن النخاس شرس الطباع غليظ الكبد يا سيدتى . ولكنه يحفظ الجميل ولا يتخلى عن صديق . لقد مات زوجك . فهل تقبلين أن أحل محله ؟

ـ أتريد منى ..؟

ـ أن تصبحى زوجتى ، نعم ، وأن يصبح ولدك ولدى

ـ ودينى ؟

ـ لا أجد فى دينك عقبة تحول دون تحقيق هذه الرغبة ستظلين على دينك اذا شئت . أوتعتنقين الاسلام اذا أردت

ـ وجورج

ـ أن مستقبله بين يديك . فعليك وحدك أن تختارى له السبيل الذى تريدين أن يسير عليه

فكرت المرأة قليلا . ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ قبلت . سأصبح زوجتك .. ولكن على شرط

ـ وما هو الشرط ؟

ـ أريد أن أكون زوجتك الوحيدة ، لا تشاركنى فى حياتى الزوجية امرأة أخرى

ـ سيكون لك ما تريدين

ـ سأدين بدينك مع ولدى . فكن له منذ الآن الأب الحنون الذى ينسيه فقدان أبيه

ـ سأكونه . وليس ما أعرضه عليك الآن غير بعض الوفاء نحو من كان لى أمينا وفيا

تزوج عثمان خير الدين ، النخاس التركى ، زوجة صديقه نيسبت السكتلاندى ، وتبنى ابنه جورج الفرنسى ، واطلق عليه اسم « عثمان الصغير »

وماتت الزوجة فى السنة ذاتها ، ولحق بها زوجها الثانى بعد سنتين ، بدون أن ينجب أبناء . فورث عنه « عثمان الصغير » ابن نيسبت ثروة طائلة

وعندما اشتد ساعد الشاب ، فكر فى ممارسة الجندية ودخل المدرسة الحربية بالقاهرة ، ولكنه لم يقم فيها طويلا ورأى أن السير على منهج الرجل الذى تبناه وأورثه ماله خير له من البحث عن مهنة أخرى . فقرر مزاولة تجارة الرقيق ، وراح يطـوف بالبلدان شرقا وغربا وجنـوبا ، ويعرض على الناس بضائعه وسلعه الحية من عبيد وجوار وانتهى الامر بأن اتخذ ساحل السودان الشرقى مقرا له ، ومركزا لتجارته الرابحة ، لان مصر كانت قد الغت تجارة الرقيق فى أرضها ، وسدت امام النخاسين أبواب الرزق

وأطلق عثمان لحيته فسماه السودانيون «عثمان دقنة»

□

كان من بين الاسباب التى أدت الى قيام ثورة المهـدى فى السودان سنة ١٨٨٠ ، اقدام الحكومة المصرية على تعميم قرار الغاء الرقيق ، ومحاولة تطبيقه فى الأراضى السودانية أيضا

فقد غضب عثمان دقنه مع من غضب لهذا القرار من زعماء السودان ، ولم يغضب عثمان ولم يلتحق بحركة محمد احمد بن عبد الله المهدى لاى غرض آخر

نشبت المعارك الاولى بين الثائرين من جهة ، والمصريين ثم الانجليز من جهة أخرى . وتكاثر الدراويش اعوان المهدى على الحاميات المصرية والحمـلات التى جردت لنجدتها ، فأحرزوا انتصارات فى جبل العذير وغيره من الاماكن فى عامى ١٨٨١ و١٨٨٢

وعهد المهدى الى عثمان دقنه بقيادة الحرب فى السودان الشرقي ، ومنع المصريين والانجليز من ارسال نجدات جديدة بطريق البحر والبر الى الخرطوم ، قاعدة البلاد التى جعلها زعيم الثورة هدفه الاكبر . فجمع عثمان جموع

القبائل ، واستعاض بالرمح يطعن به الصدور ، عن السوط يدمى به الظهور ، وتحول النخاس الى جندى ، وزعيم تجار النهود والنحور الى قائد حربى ، فراح يخوض غمار المعارك بقلب قد من جلمود ، ويدير رحاها بمهارة أدهشت العقـول

سجل عثمان دقنه انتصارات باهرة ، فى سنتى ١٨٨٣ و١٨٨٤ على الخصوص ، وكانت الاعمال الحربية التى قام بها على ساحل السودان وفى الطريق بين سواكن والخرطوم ، من العوامل الرئيسية التى مكنت المهدى من الاحـداق بالعاصمة ، ومهاجمتها ، والاستيلاء عليها ، والفتك بحاميتها

والى عثمان دقنه وحده يعود الفضل فى سيطرة الدراويش على شرق السودان كله . ومما يدعو الى الدهشة والعجب فى هذه الثورة الهوجاء ، أن العبيد الذين كان المهدى وأعوانه يحاربون المصريين والانجليز لابقائهم مكبلين بسلاسل الرق والعبـودية ، كانوا من ناحيتهم يحاربون ضد السـاعين لتحريرهم ، وفى صفوف الراغبين فى استرقاقهم !

فما حدث من قبل فى أمريكا ، عندما حارب العبيد فى صفوف الجنوبيين ضد الشماليين ، الذين كانوا ينادون بالغاء الرقيق ، قد تكرر فى السودان حيث أبى العبيد أن يحاربوا تحت لواء الحرية !

□

سقطت الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥

ومات محمد أحمد المهدى فى شهر يونيو من السنة ذاتها وخلفه عبد الله التعايشى . وظل عثمان دقنه مسيطرا على البقاع الشرقية والساحل . وعادت تجارة الرقيق الى الازدهار

لكن المصريين والانجليز لم يضيعوا الوقت ولم يدعوا

السنوات تمرسدى . فقد أعدوا عدتهم لاسترجاع السودان وزحفت جيوشهم من جديد فى سنة ١٨٨٨ ، وكان مقدرا لهذه الحرب ان تستمر عشرة أعوام

عشرة أعوام تقاتل فيها الاشقاء ، وحارب فيها السودانيون اخوانهم المصريين ، ولم يدرك هؤلاء وأولئك أن الانجليز ، وقد وضعوا أصابعهم فى هــذا الصراع العائلى الاثيم ، سيفوزون من الغنائم بحصة الاسد ، بل سيكونون هم وحدهم الغانمين الرابحين !

زحفت الجيوش المتحالفة اذن على السودان ، ونشب فيه القتال مرة أخرى ، ومرة أخرى عاد عثمان دقنه الى تسيير دفة المعارك فى الاقاليم الشرقية

ومرة أخرى حمل عبيده السيوف والرماح ، ليحولوا دون تحريرهم ، وليبقوا على تجارته ، وما تجارته غير بيع أجسامهم فى الاسواق ، والمســاومة عليها مساومته على الماشية والانعام

شعر تاجر الرقيق فى هذه المرة بأن الخطر جسيم ، وبأن القتال سيكون مريرا ، فقذف فى الميدان بجميع ما استطاع حشده من قوات وأسلحة . ولكن الحظ فى هذه المرحلة من الحرب كان يضحك له يوما ، ويعبس فى وجهه أياما !

توالت عليه الهزائم ، وخانه النصر . ولكنه لم يترك لليأس منفذا الى قلبه

ظل يقاتل ، وظل ينهض بعد كل كبوة ، ويعود الى الميدان بعد كل هزيمة ، وكان خبر موته ينتشر مرة كل أسبوع ، ولكنه يكذب الخبر فى الاسبوع التالى

وأخيرا تعب عثمان دقنه من القتال أو تعب القتال منه ، فهام على وجهــه فى البرارى والجبال والأدغال ، وكانت مطاردة أشبه بأساطير الاقدمين

ووقع الأسد الهارب أسيرا فى قبضة خصومه ، وسيق الى السجن مكبلا بالحديد !

تلك هي الذكريات التي تلاطمت فى صدرالرجل ،ومرت فى خاطره ، وهو جالس بين الجدرانالاربعة ، يعبث بشعور لحيته البيضاء ، وينظر من خلالالنافذة الضيقة الى السماء الزرقاء ، والى الفلوات التى صال فيها من قبل وجال وطارد فيها وطورد ، وانتصر فيها وانهزم

لقد ضاع كل شيء : الثروة ، التجارة ، الشباب ،الحرية!

مرت فى ذهنه أسماء الأشخاص الذين عرفهم فى حياته اصدقاء أو أعداء : أسماء أبيه نيسبت ، وأمه ، ومربيه وزوج أمه ، عثمان خير الدين ، وأحمد عرابى باشا الذى لم يكن أوفر منه حظا ، والجنرال باكر ، وهكس باشا ، ورؤوف باشا ، ويوسف باشا ، وغوردون باشا ، وجرانفل وغيرهم من القواد الذين هزمهم أو هزموه ، ونازلهم ونازلوه. والنجاشي يوحنا الذى حاول أن يطعنه من الخلف ، بينما كان مشتبكا فى معركة مع الانجليز . والجنرال ونجت ، الذى قتل عبد الله التعايشى ، وأسره عثمان دقنه ــ فى ١٨ يناير سنة ١٩٠٠ . وأخيرا كتشنر ، الذى تم اخضاع السودان على يده !

لقد انتهى كل شيء ، وضاع كل شيء !

والشيخوخة تحط بأثقالها على منكبيه ، والاسر يزيده عذابا على عذاب

انه يشعر بأن الوهن يتطرق الى جسمه ، والى عقله أيضا ..

انه يبذل جهدا عظيما لكى يتذكر !

□

أنه لا يتذكر ، مهما بذل فى هذا السبيل من جهد

الظلمات تكتنفه ، وركبتاه تضطربان ، ويداه ترتجفان ونظره لا يميز الاشياء

فتح باب السجن مرة ، ودخل عليه رجل طويل القامة

وحياه بالعربية ، فرفع اليه عثمان عينيه المنطفئتين ...
وقال الرجل :
ـ كيف حالك يا عثمان ؟
ـ أحمد الله أولا وآخرا
ـ أما عرفتنى ؟
ـ لا
ـ كتشنر !
ـ من ؟
ـ أنا اللورد كتشنر !
ـ اللورد ؟ ..
ـ ألا تتذكر هذا الاسم ؟
ـ لا ..!
ـ ألم تسمع به ؟
ـ لا ..!

□

فى شهر ديسمبر ١٩٢٦ ، مات عثمان دقنه ، أوجورج نيسبت ، أو عثمان الصغير ، الزعيم السودانى الفرنسى وقد فقد الذاكرة ، بعد أن فقد كل شىء ! وكان فى التسعين من العمر !

لقد اشترك الانجليز مع المصريين فى محاربة المهدى وعثمان دقنه ، لتحرير العبيد الارقاء !

وقد تحرر العبيد الارقاء اليوم كأفراد ، ولكن احفاد المهدى ودقنه ، وأحفاد انصارهما وأعوانهما ، يأبون أن يستعبد السودانيون كأمة ، ويستعبد السودان كوطن ؟

وهم اليوم ، بعد أن اسدلوا على ذلك الماضى ستار النسيان ، يمضون بالوطن السودانى قدما نحو استكمال الحرية والكرامة !

السيف مفتاح الفرج

الأسماء فى هذه القصة مستعارة. وهى قصـــة أسرة خاض أفرادها ميـــادين الجهاد خمس مرات ، فى سبيل الأوطان العربية المنكوبة بالاستعمار . ولا تزال البقية الباقية منهم على أهبة تامة لتلبية النداء ، اذا ما ادلهم الخطب ودق ناقوس الخطر !

المنزل صغير متواضع ، رابض فى سفح جبل من جبال نابلس ، تكتنفه أشجار باسقة ، وتسدل أغصانها حوله ستارا تمتزج خضرته بالأزهار الزاهية . والمنزل مؤلف من حجرتين للنوم وحجرة للطعام واستقبال الزائرين

وعلى جدران الحجرة الثالثة أربع صور يتوسطها سيف فى غمده وعلى الغمد هذه العبارة ، حفرت كلماتها فى النحاس : « السيف مفتاح الفرج » وتحت هذه العبارة أسماء بلدان عربية : « مصر ـ فلسطين ـ سوريا ـ لبنان »

وربة البيت امرأة فى العقد السادس من العمر ، شديدة السمرة ، فى جبينها آثار جرح عميق ، وفى عينيها بريق لم تطفئه الآلام التى تنبىء عنها تجاعيد وجهها الكثيرة . والرجل الوحيد الذى يعيش معها فى تلك العزلة شاب فى مطلع العقد الرابع ، قوى البنية مفتول العضلات كمعظم أبناء الجبال

هو ابنها ، والبقية الباقية من أسرتها . تدخل معه كل يوم ، عند الفجر الى قاعة السيف والصور ، فيقرأ الابن وأمه الفاتحة على روح الشهداء ، ويبسطان أيديهما أمام النصل القابع فى غمده ويرددان : « السيف مفتاح الفرج ! »

□

كان عمر عبد الباقى سليل أسرة مصرية ، جدها جندى من جنود الحملة المصرية الذين تخلفوا فى فلسطين بعد انسحاب المصريين منها فى عام ١٨٤١

لم يقطع عمر صلاته بوطنه الاول ، بل سافر الى مصر فى

سنة ١٩١٢ ، قبيل الحرب العالمية الاولى وتزوج فتاة من بنات قومه ، هى « سميرة » التى تمت أسرتها الى اسرته بأواصر النسب ، وأكرهته الحرب على البقاء فى مصر ، حيث فوجىء بثورة المصريين على الظلم والعدوان سنة ١٩١٩ ، فاشترك فيها مع لفيف من القرويين ، وساهم فى أعمال البطولة التى أقدم عليها سكان المدن وسكان الريف على السواء فى تلك الحقبة المثيرة من تاريخ الوادى ، وأصيب بجرح فى كتفه أقعده عن كل حركة مدة من الزمن . فعاد الى فلسطين مع زوجته وأطفاله الثلاثة : زينب ورامى وكارم

□

حمل عمر عبد الباقى معه الى وطنه الثانى سيفا قديما اهداه اليه حموه فى أثناء الثورة المصرية قائلا : « ان هذا السيف كان لجدك . وقد أعطاه لجدى ، رفيقه فى حروب الأناضول ، عندما افترق الاثنان فعاد جدى الى مصر وبقى جدك فى فلسطين . فخذه تذكارا منى ، مصحوبا بدعائى لك ولابنتى بالسعادة والخير ! »

وصل الرجل الى الارض المقدسة فوجدها على غير حالها من الهدوء والطمأنينة . فالنفوس ثائرة ، والخواطر هائجة ، والناس فى هرج ومرج ! فقد غدر الحلفاء بالعرب واعتزموا انتزاع وطنهم منهم واهداءه لقمة سائغة لليهود ، وفرضوا على البلاد انتدابا يحول بينها وبين الحرية التى وعدت بها ، فعمد كل الى سلاحه يشحذه استعدادا للطوارىء . ولم يتردد عمر عبد الباقى فى النسج على منوال الشعب الذى أصبح فردا من أفراده ، فاستل سيف الأسرة من غمده ، وحفر على الغمد تلك العبارة التى كان العرب يرددونها لجمع الصفوف وتوحيد الكلمة :

« السيف مفتاح الفرج ! »

ووقعت فى موطن المحبة والسلام اضطرابات عنيفة سالت فيها الدماء غزيرة . ومرت على فلسطين حقبة من الزمن أتيح فيها للعرب أن يشعروا العالم بأنهم لن يرضخوا لظلم ولن يناموا على ضيم وراحت نفوس زكية وأرواح بريئة قرابين على مذبح القومية العربية الفائرة . وشاءت الأقدار أن يكون لأسرة عبد الباقى نصيب من تلك الضحايا ، فأصابت رصاصة طائشة الطفلة زينب وهى عائدة الى بيت أبيها فأردتها قتيلة . .

وبعدما هدأت الحالة الى حين أعاد عمر عبد الباقى سيف الأسرة الى غمده ، وانصرف الى أعماله العادية ، ورزقه الله طفلة أخرى حلت محل الفقيدة ، فسماها « علوية » وعلق صورة زينب الصغيرة الى جانب السيف ، وحفر على الغمد اسمين هما : « مصر ـ فلسطين » تحت العبارة الأصلية « السيف مفتاح الفرج ! »

▭

وفى عام ١٩٢٥ ، لجأ السوريون الى السلاح لتحرير وطنهم من انتداب الفرنسيين ، فنشبت ثورة فى جبل الدروز عمت بسرعة البرق جميع البلاد الشامية ، حواضرها وبواديها ، وقاد المجاهدين فى ذلك الصراع الرائع بطل من أبطال الحروب المغاوير هو سلطان باشا الأطرش . فهاجت فى صدر عمر الرغبة فى القتال ، وشعر حفيد الجندى المصرى الذى حالف النصر فى ربوع الشام ، بأن الواجب يدعوه للالتحاق بالثائرين ، فتقلد سيف الأسرة ، وودع زوجته وأبناءه ، واجتاز الحدود مع لفيف من الرفاق ، وهم يهزجون : « السيف مفتاح الفرج ! »

خاض عمر عبد الباقى غمار معارك تغلبت فيها الشجاعة

على العدد والعدة ، وأسكتت فيها بنادق المجاهدين مدافع المستعمرين ، وانهزم فيها باطل الظلم أمام الايمان بالحق !

وتوثقت عرى الصداقة بين المجاهد المصرى الفلسطينى وقائد شاب من قواد الثورة : « فوزى القاوقجى » الذى كان يعهد اليه بأشد الاعمال خطرا وأبعدها جرأة !

وبعد سنتين من قتال جدير بالتخليد فى صفحات التاريخ ، أبت الأقدار الا أن تنزل بالأسرة المجيدة ضربة قاسية أخرى ، فسقط عمر عبد الباقى صريعا فى آخر معركة نشبت بين الثائرين والفرنسيين . فبكاه رفاقه ، وواروه التراب بين الصخور ووضعوا على قبره شاهدا من غصون الاشجار ، وحملوا سيفه الى زوجته وأولاده ، فضمتهم أمهم الى صدرها ، وعلقت السيف على الحائط ، ووضعت صورة الزوج الشهيد بجانب صورة ابنته ، حول السيف التاريخى ، وأقسمت أن تثأر له فى مستقبل الايام ، وتناول « كارم » خنجره وحفر اسما ثالثا الى جانب الاسمين السابقين : « مصر ــ فلسطين ــ سوريا »

□

١٩٣٦ ...

هب عرب فلسطين الى السلاح هبة واحدة ، ولجأوا الى القوة لانتزاع حقوقهم من براثن الأسد البريطانى كما فعل من قبل اخوانهم فى مصر وسوريا ، وتنادى الناس الى القتال وتبادلوا أرغفة الخبز المغمسة بالدماء من قرية الى قرية ــ وهى عادة موروثة فى جبال فلسطين للاستنفار الى الجهاد ــ ولعلع الرصاص وبرقت النصال فى القمم والوديان !

وهرعت النساء مع الرجال الى صفوف المجاهدين من كل فج وصوب . وعلمت سميرة زوجة عمر عبد الباقى أن قائد الثورة العربية فى فلسطين هذه المرة ، هو الرجل

الذى فارق زوجها الروح بين يديه : فوزى القاوقجى ، فتنــاولت سيف الأسرة عن الحائط ، واستلت نصله من غمده وقدمته لولدها البكر « كارم » وقالت :

ـ لقد بلغت العشرين من العمر يا بنى ، فعليك الآن أن تلبى النداء وتقوم بواجبين : واجب الجهاد لهــذا الوطن العربى وواجب الثأر لأبيك !

فاختطف الشاب من أمه السيف اختطــافا ، وصاح صيحة جعلت المرأة تبكى من الفرح : « سأقوم بالواجبين يا أماه ! » واذا بأخيه « رامى » يسرع اليه معانقا ، ويطلب اللحاق بالمجاهدين مثله ولكن الأم مانعت فى ذلك قائلة : « ومن يحمى الدار يا بنى اذا هاجمها مهاجم ، فنحن فى منزل منعزل وسط الجبــال ، ولن تعدم سبيلا هنا الى المساهمة فى الثــورة ، فأساليب الجهــاد ووسائله كثيرة متعددة ! »

ورحل كارم بن عمر عبد الباقى الى الجبال ، حيث التحق بالمجاهدين ، وخاض معهم غمار المعارك كما فعل أبوه من قبل ، وأبلى فيها مثله أحسن بلاء ، وعهد القائد العام الى الابن بأشد الاعمال خطرا وأبعدها جرأة ، كما كان يفعل من قبل مع ابيه

وانطلق كارم مع المجاهدين يطلب الموت لتوهب لوطنــه الحياة ، وكان صوته يرعد مع أصواتهم متغنيا بالأناشيد الحماسية :

« الموت ســترة والمذلة تعيبنا » !

أما سميرة وابنها الثانى رامى ، وابنتها علوية ، فقــد ساهموا فى الثورة قدر استطاعتهــم ، فمونوا الثــائرين ، وأنجدوا الجرحى ، وأضــافوا التــائهين ، مما أثار حولهم الشبهات ، فعهــدت السلطات العسكرية الى جواسيسها بمراقبة الدار المخبوءة بين الاشجار ، حتى اذا ما ثبت لهــا

اتصال الأسرة بالثائرين ، سيرت عليها فصيلة من الجند هاجمتها ، فدافعت المرأة وابنها ومن كان مختبئا عندهما عن الحمى المستباح ، وحطت الأقدار مرة أخرى بأثقالها على الأسرة السيئة الحظ ، فقتل الشاب رامى فى المعمعة ، وقتلت أخته علوية وهى تحاول اسعافه ، وأصيبت الأم سميرة بجرح فى جبينها فأنقذها المجاهدون الذين كانت قد آوتهم فى بيتها ، وابتعدوا بها بين الصخور الى مكان أمين

وعلم كارم بما حدث ، فأسرع مع رهط من اخوانه الى الدار المهدمة ، ودفن أخاه وأخته على القمة المشرفة على الوادى ، وأسعف أمه بالعلاج فشفى الجرح ولكنه ترك فى جبين سميرة أثرا عميقا ، وعاد الشاب الى الجبال ، ينشد الطعن والنزال !

ولم تكد تمر شهور أخرى على نشوب الثورة ، حتى كان المجاهدون يسيطرون على جزء كبير من البلاد . لكن ملوك العرب — نزولا على رغبة الحكومة البريطانية — ناشدوهم بالكف عن القتال ، على أن يتولوا بأنفسهم أخذ حقوق العرب بالطرق السياسية السلمية . فأصغى المجاهدون للنصيحة . ولبوا الدعوة وانسحبت جموعهم بأعلامها ومعداتها الحربية الى ما وراء نهر الأردن تصحبها أهازيج القرويين وزغاريد القرويات وعاد كل من حمل السلاح الى بيته ينتظر تنفيذ الوعد الذى من اجله كف عن القتال !

وأقامت سميرة زوجة عمر عبد الباقى وابنها كارم مناحة فى الدار المنعزلة . وعلقت على الجدار صورتى ولدها رامى وابنتها علوية بجانب صورتى زوجها وابنتها زينب ، وقرأت مع وحيدها الفاتحة على أرواح الشهداء وقالت : « لم يبق لى فى الدنيا سواك يا كارم . فلنقم هنا مرة أخرى ، على أننا لن نترك الثأر يفوتنا عندما تسنح لنا الفرصة القادمة ! »

وتشابكت أنامل الأم والابن أمام الصور الأربع والسيف التاريخى فى تكرار القسم ، أمام العبارة المحفورة فى النحاس : « السيف مفتاح الفرج ! »

□

مرت أعوام اضطر العرب خلالها الى التزام السكينة والهدوء ، فقد نشبت الحرب العالمية الثانية سنه ١٩٣٩ . وخدع « الحلفاء » العالم مرة أخرى بوعودهم كما خدعوه مرة أولى قبل ذلك بعشرين سنة

راحت أسرة عبد الباقى تضمد جراحها ، وتصلح ما أفسدته الظروف من حالها ، وأرادت سميرة أن تحمل ابنها الوحيد على الزواج فأبى ، قائلا ان حياته وقف على الوطن ، ورهن لطلب الثأر ، وانه لا يرغب فى اتخاذ زوجة يكون مصيرها كمصير أمه ، وأن الفرصة القادمة التى أشارت اليها ، قد لا تكون بعيدة المنال !

ولم تكن تلك الفرصة بعيدة المنال فى الواقع ، فقد عاد المستعمرون الى سابق غيهم فى لبنان سنة ١٩٤٣ . والحرب لم تضع أوزارها بعد ، فاندلع لهيب الثورة فى الجبل الابيض ، وخيل لكارم بن عمر عبد الباقى أن صوتا يهيب به قائلا : « الى سيفك فهو مرهون بمثل هذه الظروف ، ومعد لمثل هذه الوثبات ! »

وغادر سيف الأسرة حائطه مرة رابعة ، واجتاز كارم الحدود الى جبال الشوف حيث كان المجاهدون يرابطون ، ووضع نفسه تحت تصرفهم كما فعل من قبل مع الثائرين فى مصر وسوريا

ولكن القوة أذعنت فى هذه المرة للحق قبل أن يستفحل الأمر ، فلم تدم الثورة غير مدة وجيزة ، فاز بعدها اللبنانيون بحقهم كاملا غير منقوص ، وعاد كارم بسيفه الى داره الرابضة فى سفح الجبل ، وحفر الى جانب الأسماء الثلاثة

اسما رابعا : « مصر ـ فلسطين ـ سوريا ـ لبنان » تحت العبارة المنقوشة فى النحاس : « السيف مفتاح الفرج »

واستأنف مع أمه حياتهما الهادئة ، فى انتظار ما قد تجىء به الأقدار

▭

وجاءت الأقدار بما لم يكن بالحسبان !

ففى سنة ١٩٤٨ ، تكاتفت الدول وتآمرت على العرب مرة أخرى ، وأقدمت انجلترا على خيانة جديدة اشتركت فيها الولايات المتحدة ، فأعطيت فلسطين العربية لليهود لكى ينشئوا فيها « دولة اسرائيل » وأمعن الانجليز فى الخيانة والغدر فانسحبوا من البلاد التى كانت أمانة فى عنقهم ، بعد ان سلموا بعض مرافقها للصهيونيين ، ومهدوا لهم سبيل الاستيلاء على البعض الآخر . . .

وعمد عرب فلسطين الى السلاح لينقذوا وطنهم من التهويد والاستعباد

وغادر سيف الأسرة حائطه للمرة الخامسة ، وخاض به كارم بن عمر عبد الباقى غمار المعارك الطاحنة ، التى نشبت فى بادىء الأمر بين المجاهدين العرب والعصابات الصهيونية

وفى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، دخلت جيوش الدول العربية أرض فلسطين لمنع قيام الدولة البغيضة . ولكن الدهر تعاون مع الدول الكبرى وقلب للعرب ظهر المجن !

وانتزع اليهود شطرا من القطر العربى فأنشأوا فيه دولتهم . وبقى الشطر الآخر فى أيدى أصحابه فضمته الدولة الأردنية الى أراضيها . . .

فهل رضى العرب بهذا الحل ؟ أم انهم يضمرون الثأر ويعدون العدة لليوم العصيب ؟

« المنزل صغير متواضع ، رابض فى سفح جبل من جبال نابلس ، تكتنفه أشجار باسقة ، وتسدل أغصانها حوله ستارا تمتزج خضرته بالأزهار الزاهية ، والمنزل مؤلف من حجرتين للنوم وحجرة للطعام واستقبال الزائرين »

تنام سميرة فى حجرة ، وابنها كارم فى الثانية ، وأما الثالثة ، فان الأم والابن يجتمعان فيها للتحدث عن الشهداء الغائبين ، الذين تحيط صورهم بالسيف الأثرى فى غمده

والسيف ينتظر الانطلاق من الغمد مرة سادسة ! وكارم يرمقه بنظراته كلما دخل القاعة ، ولكنه لا يزعجه بلمسة ، ولا يستله خارج القراب ليغسل الصدأ عن نصله فسيوف المجاهدين اذا علاها الصدأ ، لا يغسلها غير الدماء فى الميادين

وهذا ما يراه المجاهد كارم بن عمر عبد الباقى ، وهذا ما تراه أمه سميرة ، زوجة المجاهد وأم المجاهدين . ولهذا فان الأم والابن لا يلمسان السيف بل يتركانه هادئا مطمئنا فى غمده ، ويكتفيان كل يوم بقراءة الفاتحة على ارواح شهداء الأسرة الذين قضوا جميعا فى الثورات ، وترديد العبارة التى حفرها أبو الأسرة على الغمد النحاسى : « السيف مفتاح الفرج ! » على أمل أن تتاح قريبا فرصة جديدة لسليل الأسرة المجيدة ، ليستأنف جهاده ، ويسعى الى ثأره !

واذا مررت فى وضح النهار أمام ذلك المنزل المنعزل ، فانك تسمع صوتا منبعثا من بين البواسق الخضراء الشامخة ، والأزهار العطرة الزاهية ، والصخور الناتئة القائمة ينشد الأناشيد الحماسية ، فيتجاوب الصدى فى أعماق الوادى تلك « الردة » التى ينشد الصوت على انغامها :

« الموت سترة والمذلة تعيبنا » !

جبل القسطل

في ١٨ ابريل ١٩٤٨ سقط المجاهد العربي عبد القادر الحسيني صريعا في قرية ((القسطل)) ومن قبل ، في عام ١١٧٩ سقطت الفارسة السورية هيفاء الحموية صريعة وهي تتقدم كوكبة من فرسان البادية ، في هجومهم على جبل ((القسطل)) هذا ! ...

ولد الشهيد الخالد ابن الشهيد الخالد ، عبد القادر ابن موسى الحسينى ، فى بيت العز والكرم والاقدام ، فنشأ عزيز الجانب ، كريم الخلق ، جسورا مقداما . وترعرع فى كنف أسرة عرفت نبل الاستشهاد وألفته منذ عهد جدها الحسين رضى الله عنه ، فسقط فى الميدان شهيدا مأسوفا عليه

كان عبد القادر الحسينى ، فى الحرب العالمية الاولى ، طفلا ، يطن فى أذنيه هزيم المدافع وازيز الرصاص . حتى اذا ما وضعت الحرب أوزارها ، رأى الطفل أن أهله وعشيرته وابناء قومه يقاومون عدوا لم يسمع لبطشه ذكر فيما سلف من الايام ، ولاكت الالسنة حوله اسم ذلك العدو المخيف « الصهيونية ! »

كان الطفل يعرف ان اليهود أقوام ضعفاء مضطهدون ، وان العالم بأسره يطاردهم ويذبحهم وينكل بهم ، وان العرب وحدهم يحمونهم ويضيفونهم ويردون عنهم الحيف والاذى ! فتساءل كيف يقابلون الصنيع الحسن بالغدر والاساءة ، وكيف يعضون اليد الوحيدة التى تصافحهم ، بينما الايدى جميعا فى الشرق والغرب تصفعهم على الخدين ؟

شعر الطفل بأن الخطر داهم ، ورأى أباه ــ موسى كاظم باشا الحسينى ــ يقود الشعب فى هذا الصراع الرهيب . فخفق قلبه الكبير فى صدره الصغير ، وادرك ان عهد الطفولة قد ولى قبل الاوان ، وان يده يجب ان تدع جانبا تلك الدمى التى يتلهى بها الاطفال وتمتد الى البندقية فتعالج زنادها ، والى السيف فتجرده من غمده !

عرف عبد القادر الحسينى منذ نعومة أظافره ، هياج الجماهير واعتصامها بالمتاريس ، وهجومها على المصفحات والرشاشات بالعصى والخناجر والحجارة ، والنســـــاء ينشـــدن الأناشيد الحماسية : تلك كانت خطواته الأولى فى الحياة ، خطوات ثائر يتدرب على الثورة ، ومحارب يتمرن للحرب ، وشهيد يتأهب لساعة الاستشهاد !

كان عبد القادر ثائرا فى حياة أبيه ،وثائرا يوم سقطابوه فى الميدان بعد حوادث ١٩٣٣ ، وظل ثائرا يوم انتقل علم الجهاد والزعامة من يد أبيه الى يد ابن عمه الحاج محمد أمين الحسينى ، حتى اذا ما اندلعت نيران الثورة الكبرى، فى سنة ١٩٣٦ ، هرع الشاب عبد القادر وهو فى الخامسة والعشرين من العمر الى الجبال بسيفه وبندقيته ، والتحق بالثائرين فى منطقة القدس . وخاض للمرة الاولى غمـار المعارك مع قائدالمنطقة محمد سعيد العاص . ذلك البطل المغوار الذى شاءت الاقدار القاسية ان تحرم فلسطين العربية من نبوغه ، فصرع فى الميدان ولفظ انفاسه الاخيرة على صدر معاونه عبد القادر الحسينى

وألقى الثائرون السلاح الى حين ، فى عام ١٩٣٩ ،اجابة لرغبة ملوك العرب ، ورحل قائد الثورة فوزى القاوقجى عن فلسطين برجاله وعتـاده ، ولجأ الى العـراق حيث التحق به أيضا عبـــد القادر الحسينى ، واشـــترك البطـــلان الثائران مع رشـيد عالى الـكيلانى فى محاربة الانجليز سنة ١٩٤١ ، فقاد عبد القادر كتيبة من المتطوعين

وبدأت بعد ذلك مرحلة الاعتقال والتشريد ، فتنقـــل الشاب الثائر بين مصر والمملكة السعودية ، يترقب الفرص للانطلاق من جديد الى الميدان ، وقد زادته التجارب اعتقادا بأن قضية وطنه لن تحل الا بذلك السيف الذى داعبه فى طفولته ، وتلك البندقية التى عالج زنادها منذ الصغر

وسنحت الفرصة المنشودة فى عام ١٩٤٨ ، بعد ذلك

القرار الغاشم بتقسيم فلسطين ، واقامة دولة يهودية فيها، وبعد أن اتضح للعرب ان الغرب كاذب مراوغ ، يسخر الضمائر للباطل ، ويبيع الحقوق بالمال ، ولا يعطى الا ما يؤخذ منه قوة واقتدارا . !

عمد العرب الى سلاحهم قبل أن يعلوه الصدأ ، فكان عبد القادر أول الثائرين ، وانطلق فى طليعة المحاربين ، فعقد له لواء القيادة فى منطقة القدس ذاتها ، تلك التى شهدت وقائعه قبل عشرة أعوام ، والتى سالت فى معاركها القطرات الاولى من دمائه الزكية

جمع عبد القادر جموع المجاهدين ، وراح يكيل للصهيونيين الضربات ، تلو الضربات ، فى معارك الطرق والتموين ، وعزل مستعمراتهم وتدمير بعضها ، ونسف معاقلهم ووكالتهم ، وستدون اسماء تلك المواقع بأحرف من نور ونار ، فى سجل البطولة العربية الخالدة : القدس، ابن يهودا ، باب الواد ، برك سليمان ، حوريف ، رام الله وغيرها وغيرها !

وفى اوائل شهر ابريل ١٩٤٨ ، احتدم القتال فى جبهة « القسطل » على طريق القدس ، واستبسل العرب ، وأوشك اليهود أن يتفوقوا عليهم بالعدد ومعدات الهلاك ، وكان عبد القادر الحسينى فى دمشق ، فخف الى الميدان، ووثب على جبل القسطل وثبته ، فى الثامن من ابريل ١٩٤٨ ، فقاد المجاهدين للمرة الاخيرة الى النصر ، ولكنه لقى فى تلك الوثبة حتفه ، ثم لقى ربه بضمير مرتاح وجبين مكلل بالغار !

□

كان عبد القادر الحسينى فى السادسة والثلاثين من العمر . وقد دفن جثمانه فى الحرم الشريف بمدينة القدس التى دافع عنها . وترك من البنين أربعة اطفال : هيفاء وموسى وفيصل وغازى

ولهيفاء سمية مزجت دمها بتربة القسطل ، فى المكان الذى استشهد فيه أبوها ، قبل هذا الاستشهاد بنحو ثمانية قرون ..

كانوا ثلاثه : الاخ الاكبر « سريع » والاخت « هيفاء » والا خ الاصغر « طعان » . وكانوا يحرسون القوافل فى سيرها ومسيرها بين مدينتى الموصل وحماه ، مع رفاق ورفيقات لهم من ابناء البادية الرحل الشجعان . وعاشوا مدة من الزمن فى وفاق ووئام ، مع المسلمين والمسيحيين من سكان البلاد ، ومع الصليبيين الوافدين من الغرب ..

لكن الوفاق والوئام لم يطل زمنهما . فقد هب صلاح الدين الايوبى لقتال الصليبيين ودعا البطل الهمام مواطنيه وبنى دينه الى الانضواء تحت لوائه ، فأسرع اليه الاخوان وأختهما مع من هرع الى القتال من بادية الشام وضفاف الفرات

وقعت الواقعة بين المسلمين والصليبيين وتطاحنت الكتائب فى الميادين ، وشهدت أرض فلسطين الاهوال من كر وفر ، وتخريب وتدمير ، وتقتيل وتشريد ..

فقد كتب فى صفحة الاقدار ، لهذه الارض المنكوبة أن تحوى أقدس اماكن العبادة لاديان ثلاثة،اليهودية والمسيحية والاسلام ، وان تظل على مر الايام والاعوام والاجيال ، مسرحا للمعارك واهراق الدماء ، وان يتقاتل فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون على السواء !

دارت فى شهر نوفمبر عام ١١٧٧ رحى معركة هائلة بين جيش صلاح الدين الايوبى ، وجيش ملك أورشليم بلدوين الرابع ، امام أسوار عسقلان . وكان الاخوة الثلاثة يحاربون فى صفوف المسلمين . فدارت الدائرة فى تلك المعركة على صلاح الدين ورجاله ، وتراجع السلطان الى مصر بالبقية الباقية من جيشه ، تاركا فى التلال المحيطة بعسقلان آلافا

من جثث القتلى ، بينها جثة « سريع » الحموى ، احد الاخوة الثلاثة . ولجأ طعان وأخته هيفاء الى بلاد مرجعيون بلبنان . .

وراح الصليبيون يحصنون مملكتهم ، ويشيدون القلاع على الجبال والمرتفعات ويطلقون عليها مختلف الاسماء : « كاستيل نوف ، كاستيل هو ، كاستيل فور،كاستيل مون» ومعناها القلعة الجديدة ، والقلعه العالية ، والقلعةالمنيعة ، وقلعة الجبل ــ وهى اقرب القلاع الى بيت المقدس

لم يركن صلاح الدين الى الهدوء طويلا . فقد عاد للاخذ بالثأر ، على رأس قوة لجبة ، تزايد عددها مع الايام بمن التحق بها من المقاتلين ، وقد جاءوا من الشمال والشرق، من الجبال والسهول ، يطلبون الثأر مثل صلاح الدين ، ويتوقون مثله الى القتال

وفى سنة ١١٧٩ ، كان السلطان المظفر قد اخترق البلاد الفلسطينية من جنوبها الى شمالها ، وتوغل فى جبل عامل من سلسلة الجبال اللبنانية . وهناك،حول قلعةمرجعيون، نشبت المعركة بينه وبين الصليبيين ، فدارت الدائرة فى هذه المرة عليهم ، ومحا صلاح الدين بهذا الفوز الباهر ، وصمة الهزيمة التى لحقت به فى عسقلان . وكان ذلك فى العاشر من شهر يونيو عام ١١٧٩

واشترك طعان وأخته هيفاء فى هذه المعركة ، وانتقما لدم أخيهما سريع ، بعد سنتين من مصرعه !

ووجه صلاح الدين همه منذ ذلك الوقت الى الاستيلاء على القلاع التى شيدها الصليبيون فوق الجبال والمرتفعات، فسير الكتائب ، لاقتحامها والبقاء فيها ، أو لهدمها على رؤوس أصحابها !

وانطلق طعان الحموى مع رجال احدى هذه الكتائب ، وقادت أخته هيفاء سرية من البدويات ، امتطين الخيول والتحقن بالكتيبة لاخذ نصيبهن من الجهاد

وكان هدف الكتيبة موقع « كاستيل مون » أى قلعة الجبل ، فى طريق القدس . وشاءت الاقدار ان تسقط الفارسة هيفاء الحموية صريعة بضربة سيف ، فى الهجوم الذى أسفر عن استيلاء الكتيبة العربية على الحصن . وكان ذلك فى منتصف شهر يوليو سنة ١١٧٩

وكان العرب يسمون هذه القلاع « القساطل » ومفردها « قسطل » بتحريف الاسم الاصيل « كاستيل » وبقيت بعض المواقع فى فلسطين ولبنان ، حيث بقايا الحصون الصليبية القديمة ، تعرف بهذا الاسم الى يومنا هذا . .

غير أن مصرع هيفاء الحموية فى « جبل القسطل او قسطل الجبل » لم يعدم من يثأر له ، ودمها لم يبق مطلولا بعد اهراقه . فقد واصل أخوها الصغير طعان الحموى القتال فى كتائب صلاح الدين ، وساعده الحظ فظل يتنقل مع الفاتح العظيم من ميدان الى ميدان ومن نصر الى نصر ، فساهم فى المعركة العظمى التى فتحت لصلاح الدين الطريق الى بيت المقدس ، وقضت على الدولة الصليبية فى أورشليم ، وهى معركة حطين فى الرابع من شهر يوليو ١١٨٧

وكان طعان ، اخو سريع وهيفاء واحدا من أولئك الابطال الصناديد الذين وقع عليهم اختيار السلطان لتأليف حرسه الخاص منهم فى المدينة المقدسة !

ليست هذه قصة « عبد القادر الحسينى » وليست هذه قصة « هيفاء الحموية » بل هى قصة كل مجاهد عربى وكل مجاهدة عربية !

لم يبق من « قساطل » الامس غير الذكرى ، وأكوام من الحجارة المتراكمة حيث كانت تقوم الاسوار الشامخة والابراج الشاهقة . .

ولن ينجح الصهيونيون فى تشييد قساطل جديدة ، مكان القساطل المهدمة ، ليهددوا منها كيان العرب فى فلسطين اذا كان كل عربى « عبد القادر » وكانت كل عربية « هيفاء! »

الرغيف الأحمر

لكل شعب عاداته وتقاليـــده . ومن عادات العرب وتقاليدهم تبادل ((الرغيف الاحمر)) طلبا للنجدة فى غزو أو حــرب أو ثأر

توافد سكان « صفد » على ساحة البلدة رجالا ونساء ، تلبية لدعوة المنادى ، الذى دوى صوته فى الحوارى والأزقة فانتظم عقدهم حول النار المتقدةفى وسط الساحة ، ووقف فيهم « ضرغام الحورانى » خطيبا ، فقال : « يا أبناء صفد الميامين ، لقد أزفت الساعة التى طالما ارتقبناها للأخذ بثأرنا من عثمان باشا الصادق ورجاله . فان أميرنا الشيخ ضاهر العمر يدعونا الى حمل السلاح مرة أخرى ، فعلينا أن نهرع الى الميادين ، اجابة لرغبته وطلبا للثأر من أولئك الذين ذبحوا نساءنا ! »

وتناول ضرغام من تحت معطفه خمسة أرغفة من الخبز وأشار الى أخيه « منصور الحورانى » فقاد الى وسط الحلقة جديا من الماعز ، والى أخيه الثانى «يوسف الحورانى» فاستل خنجره ، ونحر الجدى ، فتدفق دمه فى أناء من النحاس ، وحينذاك شمر ضرغام عن ساعديه ، وغمس الارغفة الخمسة فى ذلك الدم الفائر ورفعها الواحد بعد الآخر فوق رأسه ، وصاح برفاقه قائلا : « أيها الاخوان ! ليحمل خمسة رسل منكم رغيفا مخضبا بالدم الى كل قرية من القرى الخمس القريبة من بلدتنا . وعلى كل قريةترغب فى الحرب أن تتقبل الرغيف وتبعث بمثله الى القريةالمجاورة لها . وعلى الله الاتكال ! »

كان الشيخ ضاهر العمر ، من أبناء صفد ، يحكم البلاد الممتدة من مجرى الأردن شرقا الى ساحل البحر غربا ، ومن تخوم لبنان شمالا الى ضواحى القدس ويافا جنوبا ، وكان أبناؤه الثمانية يعاونونه فى المحافظة على الأمن والنظام

وجباية الضرائب ، وجميعهم أبطال صناديد ، يحسب لهم الولاة الترك ألف حساب ، ولا تنكس لهم فى الميادين أعلام !

عقد الشيخ ضاهر العمر محالفة مع صديقه على بك الكبير حاكم مصر ، واتفق الرجلان على استقلال كل منهما فى امارته ، هذا فى القاهــرة ، وذاك فى عكاء . وأوفد على بك الكبير أشهر قواده ، محمد أبو الذهب ، الى فلسطين لتأمين حدودها وشد أزر العمر فى محاربة الترك ، لــكنه انسحب فجأة عائدا الى مصر ، وحامت حوله الشكوك والريب ، وعاد عثمان باشا الصادق ـ حاكم دمشق باسم السلطان ـ يتحرش بأمير عكاء ويتحين الفرص للانقضاض عليه ، قبل أن يدركه حليفه المصرى بنجدة أخرى !

وجعل كل من الخصمين،الباشا التركى والشيخ العربى، يقوم بغارات متفاوتة على أملاك الآخر ، وغزوات بعود منها بالأسلاب والأسرى ، استعدادا للمعارك الحاسمة

وحدث مرة أن فاجأ كمين من جنود عثمان باشا فى سهول حوران قافلة عربيــة قادمة الى صــفد ، يقودها ضرغام الحورانى ومعه أخوته الثلاثة يوسف ومنصور وكليب ، وأخته حسنه. فنكل الجنود بالقافلة تنكيلا فظيعا ، وقتلوا فريقا من رجالها ونسائها ، ونهبوا ما كانت تحمله من عتاد وأرزاق ، وكان بين القتلى كليب الحورانى وأخته حسنه . . اما قائد الكمين فكان أحمد بك البورصلى أحد أعوان الباشا وأخصائه

وكظمت أسرة القتيلين غيظها ، وأقسم الاخوة الثلاثة ، ضرغام ومنصور ويوسف ، أن يثأروا للدم المسفوك ، وباتوا ينتظرون فى صفد مسقط رأسهم ، الفرصة السانحة للانتقام من عثمان الصادق ورجاله ، الى أن أتيحت لهم فى صيف سنة ١١٨٤ للهجرة ، الموافقة لسنة ١٧٧٠ للميلاد . فقــد عزم والى دمشق على مباغتة خصمه ، وزحف على امارته

بجيش مزود بالمدافع ومعدات الحصار ، يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، فوصل الى نهر الأردن ، واجتازه بدون أن يشعر به الشيخ ضاهر العمر ، وعسكر على ضفته الغربية تجاه بحيرة طبريا ، وتحفز للوثوب منها على صفد آملا أن يأخذها عنوة ، ثم ينقض منها على عكاء عاصمة الشيخ المنيعة !

بلغ مسامع العمر وأبنائه خبر وصول ذلك الجيش القوى الى النهر وانتشاره فى الوادى ، فعولوا على مهاجمته قبل أن يرفع مضاربه ، وانطلق رسل الشيخ فى الجبال والسهول والقرى والحقول ، يستنفرون الناس للقتال ، ويواعدونهم على اللقاء فى صفد .. وخفقت قلوب أبناء الحورانى الثلاثة وطربت نفوسهم فرحا ، فأقاموا ذلك الحفل المشهود فى ساحة بلدتهم ، وأوقدوا النيران فيها وعلى قمم الجبال ووزعوا رسلهم على المزارع والقرى المجاورة ، يحملون اليها الأرغفة المغمسة بالدم !

وغمس الأرغفة بالدم عادة متوارثة بين العرب فى فلسطين من قديم الزمان الى يومنا هذا . فان طالب الثأر من قاتل أو الراغب فى التمرد على مستبد ظالم ، أو الداعى الى الثورة على أجنبى دخيل مغتصب ، يعمد الى رغيف يخضبه بدم جدى ، أو كبش ، وأحيانا بدمه هو ، ثم يرسله من قريته الى القرية المجاورة يستنهض همم رجالها لنجدته فتتبادل القرى ، الواحدة مع الأخرى أرغفة حمراء تقطر دما ، معناها : « ليبق فى عقر داره من يقنع بالحياة الذليلة مع الخبز النقى ، وليتبعنا من يتوق الى حياة حرة ، وأن كان خبزها مغموسا بالدماء ! »

□

وصل الشيخ ضاهر العمر وأبناؤه ورجالهم الى القمم المشرفة على وادى الاردن حيث رابط عثمان باشا وجنوده ،

وكان الوقت ليلا ، فأصدر الشيخ أمره الى أبطاله بأن يزحفوا على بطونهم كيلا تأخذهم العيون . فصدعوا للأمر حتى اذا ما انتشروا حول المعسكر ، وبزغ الفجر، تصاعدت من كل جانب صيحات الهجوم ، فانقضوا جميعا على جيش عثمان ، وفى أقل من ساعتين تشتت فى الوادى عشرة آلاف جندى ، يطاردهم بضع مئات من العربان وأبناء الجبال من فلسطين ولبنان ، ويعملون فيهم الرماح والسيوف والخناجر !

غرق فى نهر الأردن فريق من المهزومين ، ووصل الفريق الآخر الى البحيرة فغرق فيها ، ولم ينج من ذلك الجيش القوى غير عشرات ممن يجيدون السباحة خوضا ، أو الجرى ركضا ، أو ممن احتفظوا بخيولهم فابتعدوا على متونها عن ساحة المجزرة . وأوشك عثمان باشا الصادق أن يغرق كما غرق غيره ، لو لم يدركه بعض رجال حرسه المماليك وينقذوه من الهلاك

وفى حومة الوغى ، ظل أبناء الحورانى يبحثون بين المقاتلين عن ذلك الذى قاد الكمين فى سهل حوران، فعثر عليه ضرغام وهو يحاول عبور النهر على جواده طلبا للنجاة ، فأدركه فى وسط الماء ، ووثب على كفل الجواد ، واحتضن الفارس فذبحه ذبح الأنعام ، وفصل رأسه عن جسده ، وألقى بها الى أخويه اللذين كانا يشاهدان ذلك المنظر الفظيع من ضفة النهر !

□

فر عثمان باشا الصادق الى عاصمة ولايته مكسورا ذليلا ، ومات أحمد بك البورصلى مذبوحا بيد ضرغام الحورانى ، وعاد الشيخ ضاهر العمر برجاله الى صفد وعكاء ، يسوقون أمامهم خيول الجيش المنهزم محملة

بالأسلحة والمؤن والذخائر ، واستقبلت القرى الفلسطينية أبناءها المنصورين بالتهليل والتكبير ، وأنيرت فبدت كأنها مشاعل من نار ، وزحف على ابن الشيخ ضاهر على دمشق فهدم أبراجها وقواعد المدافع المنصوبة حولها ، بينما انصرف أبوه وقد جاوز الثمانين من العمر ، الى تنظيم شئون امارته العربية ، بعد أن أمن الغارات الخارجية ، والدسائس الداخلية

وحل الفرح محل الكآبة فى نفوس أبناء الحورانى الثلاثة ، بعد أن ثأروا لأخيهم كليب وأختهم حسنة ، ومحوا العار بالعار ، وغسلوا الدم بالدم !

حنوا السيوف

اذا أردت أن تعرف مبلغ الاندفاع عند
شعب يحارب ، فاستمع الى اهازيجه
فى الحرب

السلطان سليم العثمانى

صحا سكان « الخليل » فى الصباح المبكر من نومهم على صوت يرسل فى الفضاء صيحات منكرة : « يا غيرة العرب! يا شباب الخليل ! » وكان الصوت صوت امرأة ، ولأصوات النساء النادبات أو المزغردات أو الهازجات ، وقع شديد فى نفوس أبناء الجبال وسكان الصحارى على السواء ..

هب الناس من رقادهم ، وأطلوا من الأبواب والنوافذ ، فاذا بهم يرون المرأة صاحبة الصوت : هى « عالية » بنت سليم الرفاعى ، من أبناء القدس المستوطنين فى مدينة الخليل ، وقد حلت شعرها ، ومزقت ثوبها ، ورفعت فوق رأسها سيفا أمسكت قبضته باحدى يديها وطرف نصله باليد الأخرى ، وقد خضبتهما بالدم ، وراحت تطوف فى الطرقات وبين المنازل ، وتنشد بلهجة حماسية :

حنوا السيوف العالية
حنوا السيوف العالية
حنتها بنت الخليل
أخت الرفاعى ـ عالية !

هرع أبناء الخليل نحو الفتاة قلقين سائلين : « ماذا حدث يا عالية ؟ »

فصاحت بهم الفتاة : « شرذمة من الجنود الأرناؤوط داهموا الدار ، فقتلوا أخاكم أخى دياب الرفاعى ، وأضرموا النار فى القبو المملوء بالحطب ، وواصلوا سيرهم نحوالجنوب! وها هو دم القتيل يطلب الثأر وقد حنيت به كفى ، وسوف أحنيهما بدم القتلة السفاكين ! »

فتصاعدت من كل فج وصوب أصوات شبان الخليل هاتفين : « لبيك يا عالية ! »

فما الذى حدث ! ومن هم أولئـك الجنود الأرناؤوط التابعون للجيش المصرى وكيف قتلوا بريئا ، وعهد الناس بهم لا يمدون بسوء الى أحد يدا ؟

□

كتب النصر فى الميادين للجيوش المصرية ، منذ أن زحفت فى سنة ١٨٣٢ ، فهزمت جحافل السلطان فى جميع المعارك التى خاضت غمارها ، وتم لها الاستيلاء على جبال لبنـان وسهول سوريا وبطاحهـا . غير أن الغزاة اضـطروا الى تجريد حملات تأديبية ، لاخماد الفتن المحلية ، التى ظل عمال الباب العالى وحكام المقاطعات يثيرونها فى بعض المناطق الوعرة ، للاخلال بالأمن ، ومنع المصريين من تثبيت أقدامهم فى البلاد التى فتحوها

وقد بلغت تلك الفتن أشدها فى سنة ١٨٣٤ ، ولقى المصريون عناء كبيرا فى القضاء عليها . وكان بين العصـاة الثائرين رجل من عربان « الصفاء » يدعى « فوزان الأدرعى » ضرب فى ميدان الفروسية بسهم وافر ، ونكل بالحاميات المصرية تنكيلا أثار غضب القواد المصريين ، فاعتزموا مطاردة الثائر ، وأوفدوا واحدا منهم الى نابلس حيث قيل لهم أن الفارس العربى قد اعتصم بالجبال . ولكنه لم يدركه هناك بل علم أنه فر نحو الجنوب مع أهله وأعوانه . فعهد الى شرذمة من الفرسان البدو والأكراد والأرناؤوط فى تعقب آثار «الأدرعى» على أن يلحق بهم على رأس قوة من الجنود المصريين والمقاتلين اللبنانيين . فانطلقت تلك الطليعة فى المسالك الجبلية ، حتى جاوزت القدس ، وما لبثت أن أطلت على مدينة « الخليل » وهناك علم الفرسان من الرعاة

المنتشرين فى الجبال ، أن فوزان الأدرعى قد سبقهم فى طريقه الى صحراء سينا ، وانه قضى يوما وليلة فى ضيافة دياب الرفاعى ، بمنزله القائم فى مدخل البلدة ، ولكنهانطلق بعد ذلك فى صحراء « بئر السباع » حيث يصعب اللحاق به

استشاط الفرسان غيظا لأنهم كانوا يرومون القبض على الثائر قبل وصول القائد وجنوده ، طمعا فى المكافأة التى وعد بها من يأتيــه بذلك الزعيم الخطر حيا أو ميتــا . فاحدقوا بمنزل الرفاعى الذى أضاف الرجل ، ووجدوا فيه صاحب الدار فقتلوه ، وأخته عالية فاهانوها ، ثم واصلوا السير تاركين وراءهم المضيفة التى آوت فوزان الأدرعى تلتهمها النيران !

□

لحق بهم ثلاثون من أبناء الخليل الأشداء ، تتقدمهم عاليه بنت الرفاعى وغيرها من نساء البلدة ، ينشدون الأهازيج الحماسية ، ويلوحن بسيوفهن على ظهور الجياد ، ويرددن صيحة الفتاة التى أيقظت السكان من نومهم : « حنوا السيوف العالية » حتى داهموهم فى واد تحيط به الصخور الشاهقة ، على مسافة بضع ساعات من البلدة ، فكانالثأر لدياب الرفاعى فظيعا فى قسوته ، حتى أنه لم ينج من الجنود غير ثلاثة تمكنوا من الفرار بفضل خيولهم السريعة فهاموا على وجوههم فى الصحراء ، بينما عاد أبناء الخليل ادراجهم يسوقون أمامهم خيــــول الجنود وقد انفرجت أساريرهم ، وعلا البشر وجوههم ، وانطلقت أصواتهم فى الفضاء تنشد نشيد الظفر :

حنوا السيوف العاليه
حنوا السيوف العاليه
حنوها أولاد الخليل
بالدماء الغالية !

وعلم القائد بما لحق طليعة قوته من هزيمة وفتك ذريع، فبلغ الهياج منه مبلغا ، وعزم على تأديب الذين تجرأوا على فرسانه ، ومضى الى مدينة الخليل ، مقسما أن يجعلها عبرة لكل من تحدثه نفسه بالانتقاض على سلطته ، والاعتداء على رجاله

وفى مدخل المدينة ، أمام بيت لم يبق منه غير جدران سوداء ، تجمعت حولها أكوام من الرماد : وجد القائد فى استقباله ثلاثين فارسا يحيونه بالسيوف المشرعة ، وحولهم بعض النساء السافرات ، يزغردن ويهتفن مرحبات بالقادمين . . وتقدمت منه فتاة ممشوقة القامة ، جهورية الصوت ، ممتلئة الجسم ، عليها مسحة من الجمال الجبلى القروى ، وقبل أن يوجه اليها القائد كلمة ، خاطبته قائلة :

ـ انت قادم للاقتصاص من الذين فتكوا برجالك . نحن الذين فتكنا بهم . مر بقتلنا جميعا ، وانا واخواتى فى الطليعة ، ودع أهل البلدة فى أمان ، لأن ليس بينهم مذنب غيرنا !

دهش القائد لجرأة الفتاة ، ولكنه انتهر بنت الرفاعى صائحا : « لقد اعتديتم على جنودى ، وستعاقب البلدة كلها على ذلك الاعتداء ! »

ـ ولكننا لم نكن البادئين . بل كان اعتداؤنا انتقاما وثأرا لدمنا المسفوك ظلما وغدرا !

ـ كيف ذلك ؟

ـ قتل الجنود أخى ، لأنه أضاف رجلا هاربا استجار به !

لم يكن القائد قد أطلع بعد على تفاصيل ما حدث ، بل كان يعتقد أن العدوان الذى وقع على جنوده ، لم يكن غير حلقة من سلسلة الثورات التى نشبت فى جبال سوريا وسهولها ، فترجل عن جواده ، وجلس على حجر فى وسط الطريق ، وأحاط به قواده ورجاله ، وجعل يصغى مرهف

السمع الى ما قصته عليه الفتاة الخليلية ، وحينئذ عرف أن الحق معها ومع رفاقها. وأن أولئك المرتزقة من المتطوعين الذين انضموا الى الجيش المصرى قد خالفوا الأوامر باعتدائهم على الابرياء المسالمين ، وأنه لم يكن فى استطاعة الرفاعى وأخته أن يصدا عن بابهما ضيفا ، أو أن يغدرا بذلك الضيف ، ويخونا التقاليد الموروثة عند العرب منذ القدم

□

نهض القائد بعد سماع قصة الفتاة الشجاعة ، ومد يده قائلا : « صافحينى يا عاليه ! لقد تم لك الانتقام ، وأخذت بثأر أخيك ، فقرى عينا وليطمئن بالك بعد اليوم . ولكننى أريدك من الآن فصاعدا ، صديقة لنا لا عدوة . وأريد أبناء الخليل حلفاء أوفياء ، لا عصاة ثائرين ! »

فقالت الفتاة : « نحن معكم ولكم ! »

واقرها رفاقها على هذا القول . وعادوا الى المدينة يحملون الى السكان البشرى السارة : ان المصريين قدعدلوا عن محاربتهم ، واقروهم على الأخذ بثأرهم ، فارتفعت فى أنحاء البلدة أصوات الرجال والنساء ، تهتف وتردد : « حنوا السيوف العالية ..! »

وظل أبناء « الخليل » المغاوير يرددون هذا النشيد الحماسى ، منذ ذلك العهد ، كلما حلت ببلدتهم محنة أو طرأ على وطنهم العربى طارىء سوء ، فجردوا السيوف من أغمدتها وخرجوا الى حرب أو ثورة !

مريم .. واسماعيل

الفرد يجاهد فى سبيل حريته كما تجاهد الامة فى سبيلها

اذا توغلت فى جبال سيناء ، او طفت فى صحراء النقب أو سهول بير السبع او هضاب الخليل ، ونزلت ضيفا على العربان هناك ، وجالستهم ليلا فى مضـــاربهم او حلقات أحيائهم ، فانك تسمع منهم كثيرا من الاحاديث الطلية ، والاساطير الخيالية ، والاقاصيص الواقعية التى يزخر بها تاريخ القبائل البدوية ، ويتناقلها الرواة ابا عن جد من قديم الزمان الى الآن ..

ومن تلك الروايات التى ينشدها المنشدون على أنغـام الرباب « قصة مريم واسماعيل » التى وقعت حوادثها فى أوائل القرن التاسع عشر ، والتى يتغنى بها العربان ولكنهم يجهلون اصلها واسماء ابطالها ، ولا يحددون لوقائعهاما مكانا معينا وتاريخا مربوطا

واليك القصة كما يروونها ، مضافا اليها مالا يذكرون من تفاصيلها :

وقعت معركة ذات يوم بين جماعة من العربان والجنـد وكان يقود العربان فى تلك المعركة الشاب اسماعيل بن احمد ابن بشير ، وهو من أفرس فرسان البادية ، ومن أبطال الحروب الذين لا يشق لهم فى الميادين غبار

كان ذلك فى أول عهد ولاية عبد الله باشا الخازندار على عكاء وتوابعها وملحقاتها ، أى حوالى سنة ١٨٢٠ ، وكان درويش باشا فى ذلك الوقت على رأس ولاية دمشق . اما مدينة القدس ، فكان الواليان يتنازعان السلطان فيها ، فتخضع حينا لعكاء وحينا لدمشق ، ويستنزف ثروتهـا تارة درويش وتارة عبد الله !

هزم العربان فى معركة الجليل ، وسقط زعيمهم اسماعيل

جريحا فى حومة القتال ، فقبض عليه الجند وحملوه معهم على بعير الى القدس ، حيث سلموه لسيدهم المتسلم ، الذى اغتبط لهذه الغنيمة ، على أمل أن يحمل والد الشاب، وهو من شيوخ العشائر الاغنياء المسموعى الكلمة ، على افتداء ابنه بالمـال والخيل والجمال ..

وكان فى دير « الارض المقدسة » طبيب يدعى « يوحنا ابن تميم » يعالج المرضى بالاعشاب وعصير الاثمار ، ويقوم بأعمال الترجمة بين الحجاج المسيحيين الاغراب وأهـل البلاد . فأرسل المتسلم فى طلبه ، وقال له ما معناه :

ـ ان هذا الشاب عزيز على . وهو مصاب بجراح خطرة . فعليك أن تداويه وتعيده الى سالمـا معافى . فاذا نجحت شكرتك . واذا فشلت قتلتك !

وأخذ الطبيب الشاب البدوى الى بيته ، بجوار الدير الذى يعمل فيه ، وجعل يتفنن فى علاجه ، ويتفـانى فى السهر عليه ، خـوفا على حيـاة المريض وعلى حياته فى آن معا . وعاونته فى مهمته ابنته الوحيـدة « مريم » المشهورة فى المدينة بجمالها الرائع ، واخـلاصها لابيها ، وعنايتها بمرضاه

وأشفق الله على الاب والبنت معا ، فنجا الجريح من الموت ، وابتعد عنه شبح الخطر ، فالتأمت جراحه ،وجعل يسترد قواه شيئا فشيئا ..

وتسلل الحب الى قلبه أيضا شيئا فشيئا ، ولم يكن تعلق الفتاة بالشاب الذى عالجته وانقذته ، بأقل من تعلق اسماعيل بن احمد بذلك الملاك الطاهر ، الذى اعاد اليـه الحياة والامل والرجاء !

ولم يفطن الطبيب الى ما يدور بين الشاب وابنته من حب مشترك ووعود متبادلة ، وحمله عطفه على البدوى ، ورغبته فى ابقائه بعيدا عن متناول يد المتسلم الطامع فيه وفى فديته،

على الادعاء بأن الجراح لم تلتئم بعد ، وان الشاب لا يزال فى حاجة الى الراحة لاتمام العلاج ..

وحدث فى أثناء ذلك أن حلت نقمة درويش باشا بمتسلم القدس ، وطمع فى الاستئثار بما كان المتسلم يستولى عليه من ضرائب ورسوم وغرامات ، فأرسل فى طلبه الى دمشق ، وبعث اليه يوم وصوله بمن يقتله فى فراشه ، وأوفد الى القدس رجلا من أخصائه ليتولى ادارتها بالنيابة عنه ..

وعلم عبد الله باشا الخازندار والى عكاء بما حدث ، فأوفد من ناحيته رجلا من صنائعه ليمنع المتسلم الجديد من تولى الحكم باسم صاحب دمشق ..

وأدرك المقدسيون انهم قادمون على مرحلة جديدة من مراحل البؤس والشقاء والفزع ، وان اقتتال الحكام على الحكم سيجر على السكان الويلات والكوارث ، وانهم سيدفعون ثمن ذلك التطاحن من دمائهم واموالهم واملاكهم!

وعندما بلغ مسامع الطبيب يوحنا بن تميم ما صنعه صاحب دمشق ، وما صنعه صاحب عكاء ، وما ترتب على ذلك من انتقال السلطة فى المدينة من يد المتسلم السابق الى يد متسلم لاحق ، اسرع الى ضيفه البدوى ، ووجهه يطفح بشرا وقال :

ـ لقد تعهدت بأن انقذك من الموت وأعيدك سالما معافى الى المتسلم الذى ذهب . وقد انقذتك الآن من الموت ولكن ليس بينى وبين المتسلم القادم عهد بأن أعيدك اليه ، فأنت منذ هذه اللحظة حر فى الذهاب الى حيث تشاء . فارحل يا بنى عن موطن الخطر ، لان بقاءك هنا يعرضك فى كل يوم لنقمة الحكام الذين لا يضمرون لقومك من ابناء الصحراء غير الشر والأذى .. اذهب ، ليحرسك الله فى الحل والترحال!

لكن الشاب رفض العمل بنصيحة منقذه ، واجاب بلهجة لم تترك مجالا للرد والالحاح :

ـ لن ارّحل وحدى : فاما ان نذهب معا ، واما ان نبقى معا . : ! فان الخطر محدق بكما هنا ، أنت وابنتك ، بقدر ما هو محدق بى . وحياتكما مهددة متل حياتى . وقد أصبحتما جزءا من أسرتى ، وقومى هناك ، فى صحراء غزة، ينتظرون ويرقبون . فلنذهب معااليهم ، وسنكون فى كنفهم بعيدين عن كل خطر وتهديد . بل يكون مقامنا هناك أمنع من أوكار الصقور !

تردد الطبيب فى بادىء الامر ، وابى ان يغادر البيت الذى عاش فيه والدير الذى يشارك رهبانه فى أعمال البر والاحسان والمؤاساة . ولكن الفتاة عرفت كيف تتنيه عن عناده ، وتقنعه بوجوب الرحيل عن بلد لم يعد الامن فيه مضمونا ، ولا البقاء ميسورا . وكانت عاطفة الحب فى صدر الفتاة متزايدة السعير ، فاستمدت منها مريم العاشقة لحجتها بلاغة ، وللسانها فصاحة . .

فاقتنع فى النهاية يوحنا بن تميم بوجوب الرحيل عن بيت المقدس ، والتوجه مع ابنته واسماعيل بن احمد بن بشير الى ربوع غزة هاشم حيث مضارب العربان ، وحيث السلام والامان !

لكن الحوادث تتابعت بسرعة لم تدع للثلاثة فرصة تنفيذ خطة الهرب من المدينة بدون أن يلفتوا اليهم الانظار . فقد اشتبك الجنود من أنصار المتسلم الدمشقى ، بالجنود من أنصار خصمه المتسلم العكاوى ، فدب الرعب فى قلوب السكان ، وأوصدوا على أنفسهم أبواب المنازل ، وراحوا يضرعون الى الله طالبين انقاذهم من تلك المحنة المصحوبة بالنهب والسلب وسفك الدماء . .

وقيل ليوحنا بن تميم ان الجرحى كثيرون ، وانهم يئنون فى الطرقات فلا يسعفهم أحد بعلاج . فخرج الطبيب من

بيته ملبيا صوت الواجب ، واسرع الى صديقه « يوسف البندقلي » رئيس حرس الحرم الشريف ، ودعاهالىمرافقته فى أزقة المدينة وحواريها ، للبحث عن المصابين المهملين ..

ولم يعد يوحنا الى البيت !

بل عاد اليه صديقه البندقلي وحده ، واطلع الفتاة المسكينة على الحقيقة الرهيبة : فان أباها سقط قتيلا بيد جندى من جنود المتسلم السابق ، وقد صاح ذلك الجندى فى رفاقه قائلا :

ـ اتبعونى الى بيت الطبيب يوحنا ، فان فيه مالا وفيرا. وفيه ماهو اعز من المال .. فيه الاسير العربى الذى احتفظ به المتسلم رهينة لديه لمطالبة أهله بافتدائه .. وسوف نأخذه الى العربان ونقبض الفداء او نقتله !..وفى بيت الطبيب أيضا فتاة لا تجاريها فى الجمال فتاة ! . وهى لنا .. !

لم يبق اذن أمام الفتاة والشاب غير الهرب فى الحال.. بل لم يبق امام الفتاة من الوقت ما يكفى للبحث عن جثة أبيها ، او ذرف الدموع عليها ..

خرج الشابان من البيت بدون أن يتمكنا من العثور على النقود القليلة التى ادخرها الطبيب للايام السود ، فأسعفهما يوسف البندقلى بالقليل الذى كان يحمله فانطلقا فى طريق بيت لحم ، على أمل أن يجدا فيها مأوى هادئا أمينا ...

ولكن هذه البلدة لمتكن أحسن حالا من بيت المقدس ، فقد عمها الرعب أيضا وانتشرت فيها الفوضى ، فتركها اسماعيل ومريم ، وسلكا الطريق الى جبال الخليل ..

وهناك زال الخطر ، وابتسم الرجاء للشاب والفتاة ، فاستعادا قواهما ، واستأنفا السير والمسير فى الصحراء ،

متجهين نحو الغرب ، حيث مضارب العشيرة فى سهل غزة

ووصلوا اليها بعد جهد وعناء ، فعانق الشيخ احمدابنه اسماعيل ، ورحب بالغريبة التى تصحبه ، وهلل الرجال وزغردت النساء ..

ونحرت الذبائح ابتهاجا بعودة الشاب الى أهله وعشيرته

ولكن الفتاة مريم بنت يوحنا كانت على آخر رمق من الحياة ! ..

وقال اسماعيل لابيه :

ـ لولا هذه الفتاة يا أبى لما رأيت ابنك من جديد ولما ضممته الى صدرك ! فقد اعاد الى أبوها الحياة ، وأعادت الى مريم الرجاء ، فانقاذها واجب علينا ، بل دين يتحتم علينا ايفاؤه .. اين أطباء العشيرة ليعيدوا اليها الحياة .. أما الرجاء فأنا وحدى الكفيل باعادته الى نفسها !

وتفنن الاطباء فى معالجة الفتاة كما تفنن من قبل يوحنا بن تميم فى معالجة فتاهم ، وتفانوا فى السهر عليها كما تفانى ابن تميم من قبل فى السهر على جريحهم ، ولم تكن عناية اسماعيل بمريم اقل اخلاصا من عناية ابنة الطبيب الحضرى بابن الشيخ البدوى ..

ولكن التفنن والتفانى والعناية والاخلاص ، كلها فى هذه المرة ذهبت سدى ولم تجد نفعا ..

فقد ماتت مريم بنت يوحنا من الحزن ، والالم ، والتعب ، والاعياء ..

ماتت الحبيبة بين أحضان الحبيب قبل ان يرتشف الاثنان كأس الحب ويتذوقا طعمه ويقطفا ثماره ..

ودفنت العشيرة جثة الفتاة المسكينة فى ظلال النخيل ..

وهام اسماعيل على وجهه ! ..

حاول أبوه وأهله ورفاقه عبثا ادخال العزاء الى نفسه ،

فان الشاب العاشق الولهان تحول من التفكير الى الذهول ، ومن الذهول الى الجنون !

وكانت خاتمة مأساته ، الامتناع عن الطعام والموت من الجوع !

ودفنت العشيرة فتاها جنبا الى جنب مع فتاته . .

ومنذ ذلك الوقت ، ينشد المنشدون ، ويعزف العازفون، ويروى الرواة ، فى جبال سيناء وصحراء النقب وسهول بير السبع وهضاب الخليل ، قصة « مريم واسماعيل » !

موّال لبنانى

فى سنة ١٩٤٣ ، اعتقل الفرنسيون فى
لبنان قادة النهضة القومية وارسلوهم
الى السجون . ولم تكن هذه اول مرة
يفقد فيها قادة لبنان حريتهم وهم
يدافعون عن حرية وطنهم

كان لبنان فى أواخر الجيل الثامن عشر ، مسرحا للدسائس والمؤامرات ، يتسابق أصحاب المطامع من امراء وحكام وطغاة ، احاطت ولاياتهم بجباله احاطة السوار بالمعصم ، الى بسط نفوذهم على هضابه ، واستمالة زعمائه ، بالوعد تارة وتارة بالوعيد ، وهو يمانع ويناضل ويكافح ، ينكمش ثم يثب ، يكبو ثم ينهض ، وفى كل مرة يتغلب اباء سكانه على غدر الزمان وكيد الانسان !

وقد أنبتت أرض لبنان ، فى كل محنة حلت بالجبل الاشم زعيما يقيل الوطن من عثرته ، وبطلا يحمى العشيرة ويذود عن الحمى ، بسيفه ودهائه وعزيمته

☐

كان الامير بشير الشهابى ، فى تلك الحقبة من تاريخ لبنان ، يسعى الى توحيد الصفوف بين أبناء وطنه ، واعادة مجد غابر وعزة ضائعة ، فتكالب عليه أعداء لبنان والطامعون فيه ، وسعوا لاقصائه عن الحكم ، لانهم كانوا يوجسون شرا من اتحاد كلمة اللبنانيين والتفافهم حول زعيم عزيز النفس قوى الشكيمة

ووجد الولاة والحكام المجاورون ، وعلى رأسهم احمد باشا الجزار ، صاحب عكاء ، من بعض خصوم الامير الشهابى فى لبنان ، رغبة فى محاربته ، وميلا الى معاكسته ، فتشاوروا معهم وتعاهدوا على القيام بعمل مشترك للقضاء عليه

وكان الامير كثير التجول فى أنحاء الجبل ، يخرج أحيانا

فى موكب من الفرسان المدججين بالسلاح ، وأحيانا برفقة عدد قليل من الاخصاء والمقربين ، فيطوف القرى والحقول ، ويقضى أياما بعيدا عن عاصمته « دير القمر »

ومن الاشخاص الذين كان بشير الشهابى يصحبهم معه فى روحاته وغدواته ، الشاب « قاسم » وأخته « وداد » وهما يتيمان انقذهما والد الامير من الفاقة والجوع ، ورباهما مع أبنائه ، وغمرهما بحبه الابوى ، فأخلصا له الود ، وكانا لابنه من بعده أطوع من البنان

أما قصتهما ، فانها تتلخص فى أن أباهما ، الفارس يوسف الديرانى ، قتل فى احدى المعارك دفاعا عن والد الامير بشير ، وقتلت زوجته الى جانبه ، وكانت تحمل الزاد والماء للمقاتلين ، وحق على الاسرة الشهابية أن تقابل ذلك الوفاء بمثله ، فاحتضنت الطفلين ، وأصبح قاسم ووداد فيما بعد رفيقين للامير بشير فى مغامراته وحروبه

☐

رسم احمد باشا الجزار ، صاحب عكاء ، خطة للتخلص من الامير بشير الشهابى ، وأعد العدة لتنفيذها تحت ستار الكتمان وفى جنح الظلام

وتسقط الفرص فحانت له ، اذ خرج الامير بشير ومعه عشرة فرسان بينهم قاسم ووداد ، فى زيارة أصدقاء له على مقربة من بيروت ، وصحب معه ابنه وهو طفل يدعى أيضا « قاسم »

فأوفد الجزار مائة من زبانيته ، كمنوا للامير وحاشيته القليلة العدد فى مدخل غابة بيروت ، وباتوا ينتظرون عودته للايقاع به

وكان بشير يحب السفر ليلا ، فودع أصدقاءه فى المساء وانطلق مع فرسانه فى طريق الرجوع الى مقره فى الجبال وفجأة ، داهمه رجال الجزار من كل جانب ، يعدون

كالذئاب ويشرعون فى وجهه السيوف والرماح

قاوم الامير وصحبه مقاومة الابطال ، ولكن العدد غلب الشجاعة ، فقبض أولئك الاشرار على الامير وأوثقوه ، واقتادوه مع طفله قاسم وأطلقوا لخيولهم العنان

أما رفاق التسهابى ، فقد صاح بهم الامير فى وسط المعمعة : « عودوا الى الديار واخبروا القوم بما حدث ! »

وأرادت وداد أن تلحق بالامير الاسير فنهاها أخوها قاسم وقال : « علينا أن نمهد الطريق لانقاذه ، لا ان نشل حركتنا بيدنا فى سجون عكاء ! »

تغلغل الشاب وأخته ومن بقى حيا من رفاق الامير الشهابى فى مسالك الجبال الوعرة ، وجعلوا يطوفون القرى والمزارع ، يطلعون الناس على ما وقع ، ويستنهضون الهمم ، ويستنفرون الرجال الاشداء ، وينادون بوجوب مهاجمة عكاء ، واقتحام أسوارها ، وانقاذ الامير السجين فى قلعتها

وقام بعض الخونة الذين لا يخلو منهم بلد ، فباعوا أنفسهم للجزار على أمل أن يخلفوا الامير اللبنانى فى دست الحكم ، مؤثرين السلطة الكاذبة المدعمة بحراب الغريب ، على الوفاء لوطنهم والبر بالقريب . وحاول الجزار من ناحيته ، وهو الطامع فى لبنان ، أن يفكك أوصاله ببذر بذور التفرقة بين عناصره ، وايقاد نار الفتنة بين المسيحيين والدروز والمسلمين من أبنائه ، لكى يسهل عليه هضم فريسته ، والاجهاز على الشعب الصغير الباسل ، المعتصم فى جباله

ولكن الله الذى يرعى لبنان بعين عنايته ، كان لسكانه عونا على دفع الاذى ، ورفع الضيم . ووجد اللبنانيون من بعض العشائر المجاورة تشجيعا على المضى فى جهادهم ضد العدو الجبار ، ورغبة فى شد أزرهم اذا ما ادلهم الخطب واشتعلت نيران الحرب والنزال

أما بشير الشهابى وولده قاسم الصغير ، فقد القاهما

الجزار فى سجن القلعة بعكاء ، وجعل يفاوض سيد لبنان على صلح تعاد بموجبه الى الامير حريته ، وتقيد حرية البلاد وتنهب خزينتها ويسترق أبناؤها

فرفض الامير وقال : « قد أرضى بحيف يحل بى ، ولكننى لن أرضى بذل يلحق ببلادى ! »

وفى ذات يوم ، كان الشهابى جالسا فى سجنه ، يداعب طفله وقد أخذه على ركبتيه ، ويفكر فى طريقة للهرب من القلعة ، واذا بصوت حنون ، ينبعث من وراء الاسوار ، ويرسل فى سكون الصباح موالا لبنانيا ، ردده المنشد مرتين على نغمات الناى :

حبسوك يا سبع جوا قاعة الاظلام
اياك تقول آه يقولوا هالسبع غلبان
اصبر على وعدك والمقدر كان
بكره يجيك الفرج وتعود الى لبنان
يا سبع وتجازى الخاينين والظلام !

أصغى الامير الى الصوت ، وانطلق من بين شفتيه اسم ما أدق انطباقه على مسماه : « وداد ! » . ووثب الطفل قاسم عن ركبة أبيه وركض الى النافذة صائحا « قاسم ! »

عرف الاب صوت الفتاة ، وعرف الابن نغمات الناى ، اذ طالما أطربه صديقه قاسم بها ، بين التلال والصخور ، وهو يرافقه فى الغابة ويعلمه ضرب السيف والقاء الجريد . وأدرك الامير الاسير أن أبناء وطنه لم يخنعوا للذل ولم يرضخوا لقوة الغاشم ، وأنهم على العهد باقون ، وفى سبيل انقاذه عاملون . فزاده هذا الشعور يقينا وثباتا « فصبر على وعده للبنان وبات ينتظر الفرج » الذى تغنت به وداد فى موالها الجبلى

وعلم أحمد باشا الجزار من رسله وجواسيسه أن الحالة فى لبنان لن تعود الى هدوئها السابق ، وان العصيان

يمتد ويتسع ، وأن المستقبل مفعم بالعواقب الوخيمة ، وأن الوسيلة الوحيدة لاجتناب الكوارث هى العدول عن سياسة العنف والشدة ، ومعالجة الامور بالحسنى ، لا بالقوة والبطش

وبلغه أيضا أن أنصار الامير يجمعون جموعهم ، وأنهم لن يترددوا فى مهاجمة عكاء بالرغم من قلة عددهم ووفرة الجيوش عند الجزار

فأدرك الطاغية خطأه ، وعمد الى التزلف والخداع ، وفتح أبواب القلعة للامير السجين ، وأطلق سراحه ، وأوفد معه كوكبة من الفرسان ترافقه الى مقره فى دير القمر

وهلل اللبنانيون وكبروا ، وفرحوا ورقصوا ، وزحفت جموعهم للقاء الامير ، بدل أن تزحف للقتال فى سبيل انقاذه

وعاد الاسد الى عرينه ، ومن حوله الاشبال ترعاه ، وراح يقوم المعوج من الامور فيعيدها جميعا الى نصابها ويحيط لبنان بسياج من العزم والقوة ، ويصعد به فى مدارج المجد والرفعة والسيادة

وظل قاسم وأخته طول حياتهما فى خدمة الامير الكريم، وظل بشير يذكر الفتاة بموالها كلماسنحت له فرصة لذلك، وكان يغنيه بصوته الضخم الاجش :

حبسوك يا سبع جوا قاعة الاظلام
اياك تقول آه يقولواهالسبع غلبان
اصـــبر على وعدك والمقـدر كان
بكره يجيك الفرج وتعود الى لبنان

وهنا يقف الامير بشير عن الغناء ، فتتم وداد الموال بصوتها الرخيم ، وفيه نبرات الحزم والشدة :

يا سبع وتجازى الخاينين والظلام !

وكأنها بذلك تريد أن تحمل الامير على أن يضرب ضربته،

وينقذ نفسه وبلاده من الخونة الذين تآمروا مع الاجنبى عليه وعلى لبنان

⊏

صفا الجو بعد ذلك لبشير الشهابى ، وانصرف الى تنظيم شئون امارته ، ورفع مكانتها ، وتثبيت دعائم استقلالها

ودالت دولة الجزار ، وخلفه فى حكم عكاء طاغية آخر هو عبد الله باشا ، فتحالف الامير بشير الشهابى مع مصر سنة ۱۸۳۰ ، ومشى ومعه أبناؤه ورجاله فى صفوف الجيش المصرى عند مافتح ديار الشام والاناضول ، وأبلى اللبنانيون فى تلك الحرب البلاء الحسن ، وكانوا للمصريين خير عون وأخلص حلفاء

تاريخ لبنان حافل بالمآسى ـ وحافل بالمجد !

شعب صغير تحسده الشعوب الكبيرة على مكانته وعزته!

جبل رسخت رواسيه فى الارض وشمخت رؤوسه فى الفضاء ، كان وما زال وسوف يظل معقلا للاحرار وموئلا للفازعين الاخيار !

فهرس

	صفحة
يحيا الوطن	١٠
ابن البواب	١٩
شم النسيم فى المعادى	٢٧
علم .. وقلعة	٣٧
احتلال وجلاء	٤٣
أربع رؤوس	٤٧
مصرى فى حرب البوير	٥٥
عمر المصرى	٦٣
فى الكنيسة المعلقة	٧١
مصر الظافرة	٧٩
نساء القاهرة	٩١
فاجعة فى مهرجان	١٠١
القميص الابيض	١٠٧
الحرية الغالية	١١٥
مصرية تنقذ السودان	١٢٧
عثمان دقنه	١٣٧
السيف مفتاح الفرج	١٤٧
جبل القسطل	١٥٧
الرغيف الأحمر	١٦٥
حنوا السيوف	١٧١
مريم .. واسماعيل	١٧٧
موال لبنانى	١٨٥

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان	:	شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسي بطريق الملكي المتفرع من شارع بكو في بيروت (تليفون ٧٨ ـ ١٧) صندوق بريد١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها في الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهي تولى تسليمها لحضرات المشتركين)
العراق	:	السيد محمود حلمي ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد
اللاذقية	:	السيد نخلة سكاف
مكة المكرمة	:	السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص.ب٩٧
البحرين والخليج الفارسي	:	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين
برقة	:	السيد محمد علي بو قعيقيص ـ بنغازي ـ ص . ب ١٠٤
البرازيل	:	Snr Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, *Brazil.*
ساحل الذهب	:	The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجريا	:	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
انجلترا	:	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 7, Bishopsthorpe Road, Sydenham, London S.E. 26, England.

هذا الكتاب

تحتفل مصر هذا الشهر بعيدين كريمين : عيد الجمهورية ، وعيد الحرية .. وليس أمتع للفكر والنفس ، ولا أشوق للقلب والروح من قراءة قصص السيادة والاستقلال ، والاطلاع على أمثلة البطولة الوطنية

وفى هذا الكتاب أقاصيص شائقة بقلم الكاتب الكبير الاستاذ حبيب جاماتى . وقد استوحاها من وثبات الشعوب والابطال فى جهادهم القومى ، وصراعهم الوطنى من أجل سيادة الأمة ، وحرية المواطن

ولهذا فاننا نهدى هذا الكتاب النفيس الى كل مجاهد فى سبيل حرية قومه ، واستقلال بلاده ، وكرامة وطنه ، والى كل مظلوم ض… الظالم عليه الخناق ، أو رزح تحت أثق… الاستعمار ، فنهض يدفع عنه هذه الأثقا… ويخلع نير العبودية والذل والاستعباد ، و… الى الثورة على الظالمين ، ويحطم قي… المستبدين ، ويفلت من عقاب المستعبد… ويبذل فى سبيل حريته وشرف وطنه و… قومه أغلى ما يملك من نفس ومال